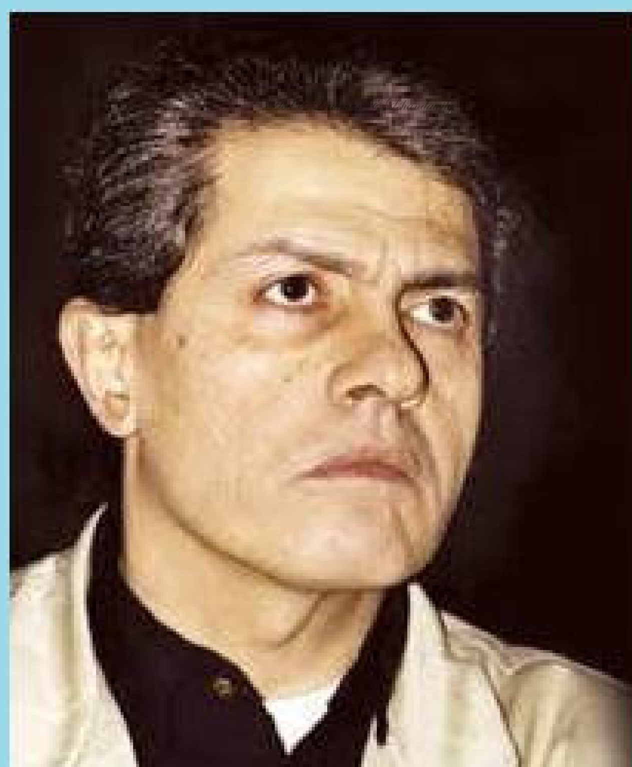
سعـــدالـلـــه ونـــوس

مسرحية يوم من زماننا



سعد الله ونّوس

مسرحية يوم من زماننا

من الأعمال الكاملة

المجلد الثاني

الطبعة الأولي

١٩٩٦

الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق

يومٌ من زماننا

المؤلّف : كان صباحاً غائماً وبارداً. كان صباحاً ككلّ صباحات أوائل الشتاء. وكانت الشاعات تدور.. قرعت المدارس أجراس الدّخول، وفتحت الحكومة أبواب وزاراتها، ودوائرها الظّاهرة والخفيّة. وكانت الشاعات تدور.. انتشرت في أوصال المدينة صياحات الباعة المتجوّلين، وضراعات المتسوّلين. وتلألأت في واجهات المتاجر الأنوار والبضائع. وكانت السيّارات تدور.. ترادفت في الشّوارع أرتال السيارات، وتزاحمت على الأرصفة أرتال المشاة.. وكانت الأشجار الهزيلة والمتباعدة تنثر أوراقها الصّفراء تحت الأقدام الشّاردة. كان صباحاً غائماً وبارداً. كان صباحاً ككلّ صباحات أوائل الشّتاء.
وكانت الشاعات تدور..

المشهد الأول

(غرفة الإدارة في مدرسة ثانوية. مدير المدرسة عبد العزيز.. بدين ومتوتّر. يقتحم المعلّم فاروق باب الإدارة كأنّه عاصفة. المعلّم فاروق شاب أنيق تدلّ ملامحه على حدّة المزاج. عُلّقت في صدر الغرفة صورة لرئيس الدولة وهو في لباس جنرال عسكري).

فاروق : أمر مُرَوِّع يا حضرة المدير. يجب أن تفتح تحقيقاً على الفور.

المدير : هل مررت بالمراحيض؟

فاروق : انتقلت المراحيض إلى الصفوف.

المدير : أنا مريض ولا أحتمل هذه الخضّات. أهناك كتابات في الصفوف أيضاً؟

فاروق : بل أقوال صريحة واعترافات مرعبة. يا فاطر السموات والأرض.. ما سمعته زلزل كياني. أطْلُبُ يا حضرة المدير أن تبدأ التحقيق على الفور.

المدير : مَن التي تجرّأت واعترفت؟ مَن الفاعلة؟

فاروق : اعترافات شائنة تراشقن بها دون حياء ودون وجل. يا فاطر السموات والأرض.. من يتخيّل أنّ الانحلال وصل إلى هذا الحدّ؟

المدير : أنا مريض.. عندي سكّري وارتفاع الضغط. ستقتلني هذه العصبة من بنات إبليس، ولكن من هنّ وكيف اعترفن؟

فاروق : أرجو أن تتمالك أعصابك، ما سأقصّه عليك غاية في البذاءة والشّناعة.

المدير : هاتِ ما لديك.. هذه المدرسة هي مدجنة إبليس، وستقصف عمري قبل أوانه.

فاروق : المدجنة في مكان آخر، ولكن البيوض تفقّس هنا. يا فاطر السموات والأرض.. ينتفض بدني كلّما تذكّرت ما حدث.

المدير : كنت أعلم أنّ هناك أصابع خارجيّة.. من هنّ وكيف اعترفن؟

فاروق : حين دخلت الصفّ كان ثمة صياح وفوضى. يا فاطر السموات والأرض.. رأيت ميسون القاضي وهيفاء معلّا تتضاربان وسط هرج الفتيات وصراخهنّ العاهر. كان الصفّ مقلوباً عاليه سافله. حسبت أنّي أدخل سوق الدّعارة لا صفّاً في مدرسة. صرختُ فلم تستجب إلاّ بضع فتيات جلسن على مقاعدهنّ. واستمرّ العراك والهرج. فرّقتُ بينهما بصعوبة، لكنّهما واصلتا التّدافع والسّباب. ولكلّ منهما زمرة تشدّ أزرها. يا فاطر السموات والأرض.. أتعرف ماذا كانت تقول هيفاء؟

المدير : أهي التي اعترفت؟

فاروق : اعترفت، وكشفت السّتر عن فضيحة مروعة.

المدير : أرجوك أوصلني إلى لبّ القضيّة.

فاروق : كانت هيفاء تصيح في وجه ابنة القاضي: يا ميسون يا قوّادة السّت فدوى.. يا فاطر السموات والأرض.. نعم كانت هيفاء تتّهم ميسون بأنّها قوّادة السّت فدوى. وأنّها أغوت لها عدّة طالبات، كانت حنان الزّمر آخرهنّ. وتبيّنت أنّ حنان الوديعة والهادئة تخفي في إهابها نمرة شرسة. هجمت على هيفاء وأنشبت أظافرها في وجهها. وكانت ميسون تقول

باستهتار صفيق.. لو كان فيك عرق جمال لزرت البيت قبلنا. ولكن ما العمل!. بيت السّت فدوى لا تدخله كرعوبة مثلك. أعترفُ يا حضرة المدير أنّ دمي فار، وأنّ حالة من الهيستيريا تلبّستني. لا أدري ماذا فعلت.. لعلّي لطمت الفتاتين معاً. أو لعلّ صراخي أرعبهنّ. وحين هدأ الصف، أردت أن أعرف المزيد، لكنّ ميسون قالت هازئة.. خير لنا جميعاً ألاّ تسرف في الأسئلة يا أستاذ!

المدير : (ضجراً) أرهقتني بالحكايات العرضيّة، ولم تصل بي إلى الجوهريّ.

فاروق : ألا تجد ما رويته لك جوهريّاً؟!

المدير : والكتابات. ماذا قلن عن الكتابات؟

فاروق : ماقيمة الكتابات والاعترافات صريحة؟!

المدير : بدأ الألم في مؤخرة رأسي. ولكن من يبالي؟ الكتابات هي الفضيحة الحقيقية.

فاروق : أيّة كتابات؟ أتريد يا حضرة المدير اعترافات مكتوبة؟

المدير : وإذن فأنت لا تعلم شيئاً!

فاروق : ألا يكفي ما علمته؟

المدير : هذا الصباح اكتشفنا كتابات جديدة في المراحيض. أنا رجل مريض ولن يَدَعوني أصل إلى تقاعدي بسلام.

فاروق : لدينا الآن ماهو أخطر من الجهالات التي تكتب في المراحيض.

المدير : ما كُتب هو الفضيحة، وهو الخطر الفعلي. لم يقولوا لك إذن! إنّها كتابات سياسيّة. وفيها شتائم تطال الر.... (**يتلفّت حوله خائفاً وحذراً**) فعلاً إنّ هلاك الإنسان بين فكيه.. هل فهمت الآن في أيّ ورطة نحن؟ يريدون أن يوقعوا بي. وأنا مريض لا أتحمّل هذه الهزّات. أنتظر أن تساعدوني جميعاً،

ينبغي أن نتحرّى بهدوء الثغرة التي ينفذ منها الفساد.

فاروق : ما يهبّ من بيت الست فدوى هو الفساد يا حضرة المدير. والثّغرة التي ينفذ منها بدأت تنكشف.

المدير : أرجوك لا تثقّلها على رأسي. يكفيني ما أنا فيه.

فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. أيمكن أن تشغلك هذه الخربشات الصبيانية عن الوقائع الفاضحة التي ذكرتها لك؟

المدير : خربشات صبيانيّة! أتسمّيها خربشات صبيانيّة؟! قلت لك إنّهم يشتمون الـ.. اسمع يا أستاذ فاروق. ربّما كان لك ظهر يحميك، أمّا أنا فلا ظهر لي إلاّ سنوات خدمتي الطويلة.

فاروق : لاظهر لي ولا بطن، ولكن في أعناقنا أمانة وواجب.

المدير : ماذا تراني أفعل! آكل خراء أم أؤدّي الأمانة والواجب. آخ.. رأسي.. أوصاني الطبيب أن أتحاشى التوتُّر. لو أنّ جنابه مكاني، هل يستطيع أن يتحاشى التوتر؟ يا فاروق أنت أستاذ مشهود له بالكفاءة وأيّ مدرسة تعلّم فيها هي الرّابحة. ولكن اسمح لي أن أقول لك، وأنا بمثابة والدك. إنّ خبرتك العمليّة هزيلة. أتعرف لماذا احتفظت بمنصبي كلّ هذه السّنوات؟ وأؤكد لك أنّ الذين يتربّصون بي كثيرون. الآن.. الآن ونحن نتبادل الحديث، هناك من يدبّج التّقارير، ويطيّرها إلى مختلف الجهات. إنّي رجل مريض، وليس حولي من يرحم. لقد احتفظت بمنصبي كلّ هذه السنوات لأنّي أعرف واجبي وأؤدّيه بأمانة. وواجبي الفعلي هو أن أحمي المدرسة من جرثومة السّياسة، وأن أربّي الطلاّب على الولاء والطّاعة.

فاروق : وواجبك كمعلّم ومربٍّ وقدوة!

المدير : قم للمعلّم وفّه التّبجيلا كاد المعلّم أن يكون رسولاً، وهلمّ جرّاً وهلمّ جرّاً.. أما قلت لك مازلت تعيش في عالم من المثل والأفكار الملوّنة؟ هذا جميل.. ولكن الواقع مختلف.

من يبالي اليوم بالمعلِّم؟ فَقَد التَّقدير وصارت مكانته في المجتمع هزليَّة. حين أمرّ على البقَّال، أحسّ رنَّة السخرية في صوته وهو يقول أهلاً بالأستاذ. وأنا لا ألومه. كيف ألومه والأستاذ المحترم لم يستطع منذ عام أن يغلق حسابه عند البقّال. كلّ شهر يبقى مبلغ يُدوَّر إلى الشهر التالي. هذا هو حال المعلّم. انحطّ شأنه، وتدهورت مكانته. إنّه يتخبّط في القاع كي يظلّ مستوراً، ونادراً مايجد السّترة إلاّ في الموت.. وأنا فوق أمراضي تتواتر عليّ المشاكل كي تقصف عمري. يا أستاذ فاروق.. أتعلم لماذا صنّفوا مدرستنا بين المدارس النّموذجية؟. قد تظنّ أنّ السبب هو نسبة النجاح التي حقّقناها في الثانوية العامة. لا.. لا أحد يهتم بنسبة النجاح. باختصار.. إنّنا مدرسة نموذجية، لأنّي أميّز في أداء واجبي بين العابر والجوهري.

فاروق : مهما قلت يا حضرة المدير، ومهما ساءت أحوال المعلّمين، فإنّ حماية الأخلاق مسؤوليتنا. يا فاطر السّموات والأرض.. أنقف مكتوفي الأيدي، ونحن نرى الانحلال يتفشى بين طلابنا؟

المدير : يا فاطر السموات والأرض.. وهل تراني أقف مكتوف اليدين! هذه المماحكة ستسبّب لي الجلطة. مادمت تتشدّق بالحديث عن الأخلاق والانحلال الخلقي، هل تستطيع أن تخبرني ما هي أمّ الفضائل في زماننا؟

فاروق : أعرف ما هي الفضائل التي ينبغي أن تتحلّى بها الأجيال، ولا يهمني ترتيبها.

المدير : لا.. إنّ ترتيبها مهمّ جداً. وأحمد الله أنّي لست من الواشين ولا أضرّ زملائي. إنّ أمّ الفضائل يا أستاذ فاروق هي محبّة

(يشير إلى الصّورة) والولاء له. أمّا مايرتكبه المرء بعد ذلك فلا يُعدُّ إلاّ من الهنات الهيّنات.

فاروق : أعترفُ يا حضرة المدير أنّي لم أهتمّ يوماً بالسياسة. ولا شكّ أنّك أقدر منّي على معرفة سبلها ومقتضياتها. ومادمت تقول إنّ تلك هي أمّ الفضائل، فلا ريب أنّها كذلك. ولكن يمكنك أن تشنقني قبل أن أوفق على أنّ الدّعارة من الهنات الهَيّنات. يا فاطر السموات والأرض.. كيف يمكن أن تكون الدّعارةُ مجرّد هَنَة وهَيّنة أيضاً! (يطرق الباب).

المدير : أرجوك، أجّل لي هذا الجدل العقيم.. تفضّل..

(تدخل ثريّا وهي موجّهة في المدرسة)

ثريا : أخيراً استطعت أن أحصي كلّ الطالبات اللواتي دخلن المراحيض هذا الصّباح. وهذه هي القائمة.

المدير : (يستعرض القائمة) ما هذا! مئة وسبع عشرة طالبة! إنّي مريض. وهذه المحنة ستقصّر أيّامي.

ثريّا : لا قدّر الله. ربّما كان العدد أكبر، ولكن لم أسجّل إلاّ من تأكّدت أنّها دخلت المرحاض.

المدير : ويمكن أن يكون العدد أكبر! هل يجئن للدراسة أم لقضاء الحاجات؟! إن المراحيض العامة في السوق الرئيسية، لايدخلها طوال النهار مثل هذا العدد. لاشكّ أنّ هناك خطأ، أو تضليلاً مقصوداً. هؤلاء الجنّيات يضلّلن إبليس الشيطان نفسه.

ثريّا : يا حضرة المدير، لست بنت البارحة، ولا أخدع بسهولة. تحرّيت أقصى الدقّة قبل أن أسجّل الأسماء.

المدير : لاأقصد الإساءة. ولكن ماذا تريدين أن أفعل بهذه القائمة؟ كيف أجد الفاعلة بين مائة وسبع عشرة طالبة؟ كمن يبحث عن إبرة في كومة قشّ. لا.. الإجراء الثاني أكثر نجاعة.

ثريّا : أن نجمع الدفاتر؟

المدير : كلّ الدّفاتر.. بلا استثناء. وسأطلب خبير خطوط. هل أقفلت مسرح الجريمة، أعني المرحاض؟

ثريّا : الأقفال مخلوعة كما تعرف. لهذا فرزت واحدة لحراسته ومراقبة المكان.

المدير : أهي موثوقة؟

ثريّا : لولا ثقتي بها ماكلّفتها.

المدير : ينبغي إصلاح الأقفال، وتنظيف المراحيض. من يعرف؟ قد يزورنا مسؤولون، ولكن هذا يحتاج إلى همّة، إلى تعبئة عامة. ماذا يفعل المدرّسون؟

ثريّا : إنهم يتبادلون الوشوشات.

المدير : هم يتبادلون الوشوشات، وأنا أتراقص في المقلاة.

ثريّا : إذا أردت رأيي يا حضرة المدير.. اللّامبالاة في مثل هذا الموقف نوع من التواطؤ.

المدير : هذه فطنة مدهشة يا آنسة ثريّا. نعم.. إنّه تواطؤ، وللتواطؤ ثمن.

ثريّا : حين كنت أجمع معلوماتي.. نَخَرت المدرّسة سلوى، ونظرت إليّ نظرة فيها ازدراء وشماتة.

المدير : تلك المأنوفة! سأشير إلى نظرتها في التقرير **(يلتفت إلى فاروق، ثمّ يستدرك مرتبكاً)** أعني في السجلّ. لاشكّ أنّ هناك بعض الشّامتين. إنّها مكيدة مدبّرة بِلَيل. وإلاّ لماذا لم تحدث إلاّ هذا العام.. ومرّتين خلال فصل واحد؟ أريد همّتك يا آنسة ثريّا. اجمعي الدّفاتر وتحرّي كلّ مايمكن أن يرشد إلى المجرم.

ثريّا : أنا جاهزة يا حضرة المدير. ولكن ليتك تكلّف من يساعدني.

المدير : ما رأيك يا أستاذ فاروق؟ لن تبخل عليّ وعلى الوطن بهذه الخدمة.

فاروق : (مرتبكاً) أفضّل أن ننهي موضوعنا أولاً.

المدير : ألم ننهِ الموضوع؟!

فاروق : لم ننهِ شيئاً بعد.

المدير : اللهم ألهمني طول البال. طيّب.. اذهبي يا آنسة ثريّا، وسأنضمّ إليك شخصياً. آه.. هذا الألم في قحف جمجمتي!

ثريّا : لديّ ملاحظة صغيرة قبل أن أذهب. مانحن فيه يقتضي أقصى التركيز. ولذا أرجو الأستاذ فاروق أن يغضّ الطرف عمّا حدث في صفّه.

فاروق : أتعرفين ما حدث في الصفّ؟

ثريّا : مهمّتي أن أعرف كلّ ما يحدث. ورغم انشغالي اليوم، وجدتُ الوقت كي أعرف.

المدير : إنه حظّ كبير أن تعمل معي موجّهةٌ مثلك.

فاروق : ومع هذا تطلبين منّي أن أغضّ الطرف! يا فاطر السّموات والأرض.. إنّي لا أفهم.

ثريّا : هنّ فتيات ناضجات. ولاؤهنّ لا تشوبه شائبة. وآباؤهنّ لهم مراكز ونفوذ.

فاروق : ماذا تعني المراكز، وماذا يعني الولاء؟! المسألة تتعلّق بالشرف ومستقبل المدرسة.

ثريّا : قلت مالديّ.. والسيّد المدير يستطيع أن يقدّر الأمور أفضل منّي. سأذهب الآن.

المدير : نعم.. اذهبي، وسأنضمّ إليك عمّا قليل. إنّه حظّ طيّب أن نعمل معاً يا آنسة ثريّا.

ثريّا : شكراً يا حضرة المدير.

(تخرج)

المدير : أرأيت يا أستاذ فاروق كيف توزن المسائل؟!

فاروق : لم أرَ إلّا إصراراً على لفلفة الموضوع رغم خطورته. ماذا تعني المراكز ونفوذها! أنخون ضمائرنا، لأنّ أبا هذه الفتاة أو تلك موظّف مسؤول؟! أيرضى هؤلاء الآباء أن تكون بناتهم.. وأخجل من لفظ الكلمة!

المدير : اللّهم ألهمني طول البال.. رأسي! أين وضعت علبة الدّواء! هذه ثالث حبّة أتناولها اليوم. كنت أعلم أنّك مستقيم، وأنّك فلتة في الرّياضيّات، ولكنّي لم أكن أعرف أنّك عنيد ومماحك إلى هذا الحدّ.

فاروق : إنّني عنيد لأنّي مصعوق يا حضرة المدير. ما تكشّف أمامي شنيع، وتجاهله أشنع.

المدير : يا أستاذ فاروق لا يخلو الشجار من شتائم وبذاءات.

فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. يبدو أنّك لم تستوعب يا حضرة المدير ماروبته لك!

المدير : ولماذا لا تقول إنّي غبيّ ودماغي سميك! ما كان ينقصني اليوم إلاّ لجاجتك يا أستاذ فاروق!

فاروق : معاذ الله.. ولكن لعلّك لم تنتبه. تبادلت البنات تهمة الدّعارة، ويبدو أنّ بعضهنّ يتردّد على بيت الستّ فدوى.

المدير : لايعنيني، ولا يدخل في نطاق عملي ما يحدث خارج المدرسة. ألا ترى أنّ لدينا في المدرسة مشاكل كافية ووافية؟

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. ألا تعنيك حماية الطّالبات من الانزلاق إلى الدّعارة! إنّ بيت السّت فدوى يمدّ أروقته داخل المدرسة. إنّه يقتحمنا، ويهدمنا من الداخل.

المدير : يخيّل إليّ أنّ لديك لوثة اسمها السّت فدوى.

فاروق : ألا ينبغي أن تكون لدينا جميعاً هذه اللّوثة؟ من يجهل ما يحدث في بيتها! إنّ حياتي الاجتماعيّة ضيّقة.. من البيت إلى المدرسة، ومع هذا لا أجهل ما يجري لديها.. بيتها

لايخفي أسراراً. ونحن نصطدم بزبائنها وسيّاراتهم الفخمة في اللّيل وفي النّهار. وهنا.. هنا في المدرسة، كم تحدّث المدرّسون عن البيت وخطره على الحيّ. حتّى أنت، إذا لم تخنّي الذّاكرة سمعتك تستنكر ممارسة الرّذيلة بهذه العلانية.

المدير : لا أذكر أنّي تناولت السّت فدوى بسوء.. لاسيّما بعد أن تعرّفت عليها. أعوذ بالله.. ها نحن نثرثر كالعجائز، وكأنّه ليس لديّ ما أفعله.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. هل قلت يا حضرة المدير إنّك تعرّفت عليها؟

المدير : نعم.. تعرّفت عليها. وهي امرأة كريمة وخدومة.

فاروق : هل تدافع عنها أيضاً؟

المدير : لا أدري عمّا أدافع؟ ألا تفهم؟ لديّ الآن ما هو أخطر وأهمّ.

فاروق : أي أنّك لن تتّخذ أيّ إجراء؟..

المدير : (متأففاً) طيّب.. أعطني أسماء الطالبات، وسأوجّه إليهنّ توبيخاً خطّياً.

فاروق : أهذا كلّ شيء؟

المدير : ماذا تريد إذن؟!

فاروق : أن تباشر تحقيقاً فوريّاً لمعرفة أبعاد المسألة.

المدير : قلت لك ألف مرّة إنّي أحقّق فيما هو أهمّ.. آخ رأسي.. اسمع يا أستاذ فاروق.. لقد أدّيت واجبك وأخبرتني بما حدث في الصفّ، والآن دع الأمر لي وعد إلى دروسك.

فاروق : لا أستطيع أن أدع هذا الأمر، إذا لم أتأكّد أنّ تحقيقاً سيجري.

المدير : اسمع يا بنيّ نصيحتي. انسَ الأمر وعد إلى دروسك.

فاروق : لن أسمع نصيحتك، ولن أنسى الأمر. يا فاطر السموات والأرض.. طالبات يمارسن الدّعارة، وتقول لي انسَ الأمر!

المدير : إنّنا نحقّق في قضيّة أخطر. واللاّمبالاة هي نوع من التواطؤ.
فاروق : هل تهدّدني؟
المدير : بل أنبّهك إلى المزالق الّتي يدفعك إليها العناد.
فاروق : إنّي مصرّ على متابعة هذا الموضوع.
المدير : تابعه إذن خارج المدرسة.
فاروق : ليكن، لابدّ أن يكون في هذا الحيّ من تثور حميّته، ويقف في وجه هذا الانحلال المرعب.
المدير : من سلّطك عليّ.. واليوم بالذات؟! اذهب وفتّش عن رجل الحميّة، اذهب إلى الشيخ متولّي إذا شئت. ولكن أقول لك بأبوّة.. لاتثر ضوضاء لا تعرف عمّا تسفر، ولاتوغل كثيراً في تقصّي هذا الأمر.
فاروق : ماذا تعني؟
المدير : لا أعني شيئاً. رغم عنادك، أنا أحاول أن أجنّبك الأذى.
فاروق : تجنّبني الأذى، أم تحاول التستّر على الستّ فدوى؟!
المدير : اخرج.. ضيّعت وقتي، وعرقلت التحقيق في قضيّة مصيريّة وتاريخيّة. اخرج وتخبّط في هذا الدّرب الوعر كما يحلو لك.

(نقر على الباب).

المدير : تفضّل.. أمّا أنت يا أستاذ فاروق فلا داعي لبقائك.
فاروق : سأمضي، وسأتابع هذا الأمر وحدي.

(تندفع إلى غرفة المدير الآنسة ثريّا، ومعها الطالبة منى زيدان).

ثريّا : وجدت لك شيئاً مثيراً يا حضرة المدير.
المدير : هل عرفت الفاعلة؟
ثريّا : بدأنا نمسك الخيط. انظر ماذا تقرأ الآنسة منى.
المدير : ما هذا؟

ثريّا : كتاب طبائع الاستبداد.

المدير : طبائع الاستبداد! ماذا يفعل هذا الكتاب في مدرستي؟ منذ سنوات منعنا تداوله، وأتلفنا كلّ النّسخ الموجودة في مكتبة المدرسة.

ثريّا : تقول الآنسة منى، إنّها جاءت به من مكتبة أبيها.

المدير : ولماذا تأتي به إلى المدرسة! من أين تطلع علينا هذه العفاريت؟! ومن أين تأتينا هذه الفضائح؟!

ثريّا : أعتقد أنّ الفضيحة واحدة، لكنّها أكثر تشعُّباً ممّا قدَّرنا.

المدير : أيتها الفتاة.. أتعرفين ماذا تقرئين؟

منى : إنّي أقرأ كتاباً لواحد من أعلام النهضة العربيّة، اسمه عبد الرحمن الكواكبي.

المدير : هكذا.. وتجرؤين على قول ذلك بالفم الملآن؟ ماذا يجري في هذه المدرسة؟! ألا تعلمين أنّ العهود البائدة هي التي سمّته عَلَماً من أعلام النهضة! أمّا في هذا العهد المبارك فقد انكشف المستور، وعرفنا من هو عبد الرحمن الكواكبي. رجل مشبوه في صلاته، وكتاباته، احترف التّحريض وزعزعة الاستقرار. وهذا الكتاب الموتور يحفل بالنمائم والتوريات الحاقدة.

ثريّا : وانظر يا حضرة المدير الفقرات التي وضعت الآنسة منى تحتها خطوطاً حمراء.

المدير : (يقلّب الكتاب ويقرأ) الحاكم المطلق مستبدّ.. ويعلم من نفسه أنّه الغاصب المعتدي، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من النّاس يسدّها عن النطق بالحقّ، والتداعي لمطالبته. المستبدّ عدوّ الحقّ، عدوّ الحرّية وقاتلها. المستبدّ يودّ أن تكون رعيّته كالغنم درّاً وطاعة، وكالكلاب تذلُّلاً وتملُّقاً. أعوذ بالله.. آه.. رأسي.. هذه أقوال فظيعة. كلّها تحريض وفتنة.

(يرمي الكتاب على الطاولة وكأنّ لسعة أصابت يده) أعوذ بالله.. إذن هذه هي العبارات الملغومة التي استهوتك يا فتاة! افتحي التّحقيق يا آنسة ثريّا.. لا.. لن تتحوّل مدرستي إلى وكر للمعارضين والخونة. وسترون شدّتي في هذه المسائل.. ولكن ما أبقاك يا سيّد فاروق! لماذا تلكأت في الانصراف؟

فاروق : **(كمن يستيقظ)** آه.. حقّاً.. يا فاطر السموات والأرض.. إنّي منصرف. **(يخرج)**.

المدير : يافاطر السّموات والأرض.. سأذكر في التّقرير لا مبالاتك.

ثريّا : تعمدت الإشارة أمامه إلى العلاقة بين اللّامبالاة والتواطؤ.

المدير : كانت ملاحظة ثاقبة يا آنسة ثريّا.. والآن ابدأي في تسجيل المحضر.

(يتخذ المشهد هيئة محكمة تحقيق، فيما تتلاشى الإضاءة).

المؤلف : وكانت الساعات تدور...

خرج فاروق من المدرسة، وكأنه يفرّ من بناء يتصدّع. كان مشوّش الذهن، ولكنّه كان مصمّماً على متابعة هذه القضيّة. ناضجات وولاؤهنّ مؤكّد. المستبدّ عدوّ الحق. عبد الرحمن الكواكبي. ألم يكن يدرّس على أيّامهم؟! لو لم يكن ممنوعاً لأعاد قراءته.. في الشارع انتبه إلى انحلال ربطة عنقه، وتجعّد قميصه. توقّف لحظة. سوّى ربطة العنق، ومسّد القميص، وغمرته عذوبة دافئة.. هذا الصباح قالت له: اشتريت لك هديّة، ثمّ أخرجت من علبة كرتونية أنيقة قميصاً وربطة عنق غالية. احتجّ، ولامها على الإسراف، إلاّ أنّ موجة من الحبّ والزهو كانت تغمره. ساعدته في ارتدائهما. مسّدت طيّات القميص، وسوّت الرّبطة، ثمّ أبعدته بطرف يدها، وتأمّلته بفرح. يا الله.. ما أجمل فرحها! وودّ أن يعود إلى البيت. انعطف إلى الشارع الرّئيسي، وتناهت إلى أذنيه تلاوة من القرآن الكريم، أخذت تعلو تدريجيّاً. توقّف المارّة على رصيفي الشّارع. كانت عربة دفن الموتى تتقدّم ببطء وخلفها رتل من السيّارات والولولات. سمع المارّة يترحّمون على الميت. ومن ترتيل المقرئ الّذي تضخّمه المكبّرات التقط نُتفاً من الآيات.. ﴿خُلِقَ الإنسَانُ مِن عَجَلٍ سأُريكم آيَاتِي فلا تَستعجلونِ..﴾ فاضت نفسه بالرهبة، وودّ لو يعود إلى البيت. ولكن عناداً غريباً كان يسوق خطواته، ويتّجه به إلى الجامع.

المشهد الثاني

(الشيخ متولّي يتصدّر أحد أروقة الجامع، وإلى جواره مذيع يسجّل له برنامجه اليومي. أثناء التسجيل يدخل فاروق حاملا حذاءه بيده، ويجلس قريباً منهما..)

المذيع : وجاءت رسالة من الأخ ابراهيم العجّان يقول فيها إنّه أعسر. وهو يسأل عن آداب الاستنجاء والدّخول إلى الخلاء، وعمّا إذا كانت هذه الآداب تتغيّر إذا كان الرّجل أعسر..

الشيخ متولي : بسم الله الرّحمن الرّحيم. الاستنجاء هو إزالة النّجاسة، أو تخفيفها عن مخرج البول أو الغائط. وحكمه الوجوب، وهو يجوز أن يتمّ بالماء، كما يجوز بكلّ جامد خشن يمكن أن يزيل النّجاسة كالحجر ونحو ذلك. والأفضل أن يستنجي المرء أوّلاً بالحجر ونحوه، ثمّ يستعمل الماء. لأنّ الحجر يزيل عين النجاسة، والماء بعده يزيل أثرها دون أن يخالطها. وإن اقتصر على أحدهما فالماء أفضل، لأنّه يزيل العين والأثر بخلاف غيره. وإن اقتصر على الحجر ونحوه، فيشترط أن يكون المُستعمَل جافّاً، وأن يُستعمَل قبل أن يجفّ الخارج من القُبُل أو الدُّبر، وألاّ يجاوز الخارج صفحة الإلية أو حشفة الذّكر، ومايقابلها من مخرج البول عند الأنثى. كما يشترط أن لا تقلّ المسحات عن ثلاثة أحجار أو ما ينوب مَنابَها. فإن لم ينظّف المحلّ زيد عليها، ويُسَنُّ أن يجعلها وتراً، أي منفردة

كخمسة أو سبعة ونحوها. روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أتى النبيّ ﷺ الغائطَ فأمَرني أن آتيَه بثلاثةِ أحجارٍ». أمّا الآداب المتعلقة بالدخول إلى قضاء الحاجة والخروج منها، فيستحبّ لقاضي الحاجة أن يقدِّم رجله اليسرى عند الدّخول ويمناه عند الخروج، لأنّه الأليق بأماكن القذر والنجاسة. ولا يحمل ذكر الله تعالى، ومثله كلّ اسم معظَّم. كما يستحب أن يقول الأذكار والأدعية التي ثبتت عن رسول الله قبل دخول الخلاء، وبعد الخروج منه. فيقول قبل الدّخول (بسم الله، اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الخُبُث والخبَائث) والخُبُث جمع خبيث، والخبائث جمع خبيثة، والمراد ذكور الشياطين وإناثهم. وبعد الخروج يقول: (غفرانك، الحمد لله الّذي أذهب عنّي الأذى، وعافاني، الحمد الله الّذي أذاقني لذّته، وأبقى فيَّ قوّته، ودفع عنّي أذاه). وهناك آداب تتعلّق بالجهة، إذ يحرّم على قاضي الحاجة أن يستقبل القبلة أو يستدبرها إن كان في الفضاء، أو في بناء غير معدّ لقضاء الحاجة. فإن كان البناء معدّاً لقضاء الحاجة جاز الاستقبال والاستدبار. وهناك آداب تتعلّق بحال قاضي الحاجة، فعليه أن يعتمد على يساره، وينصب يمناه، ولا ينظر إلى السّماء ولا إلى فرجه، ولا إلى ما يخرج منه، لأنّه لا يليق بحاله. وعلى قاضي الحاجة أن يستعمل شماله لتنظيف المحلّ بالماء أو بالحجر ونحوه، لأنّه الأليق بذلك. ويكره أن يستعمل يده اليمني لهذا، كما يكره له أن يمسّ ذَكره. وإن احتاج أن يمسك الذَّكر لينظّفه بالحجر ونحوه من الجامدات، أمسك الجامد بيده اليمنى دون أن يحرّكها، وأمسك الذَّكر باليسرى، وحرّكها لينظّف المحل. روى البخاري ومسلم عن

أبي قتادة رضي الله عنه، عن النّبي ﷺ قال: (إذا بَالَ أَحَدُكُم فلا يَأْخُذَنَّ ذَكَرَهُ بيَمِينه ولا يَستَنج بيَمِينه). وهذه الآدابِ لا تتغيّر إن كان الرّجل أعسر، وحكمه هو حكم الآخرين على السّواء. والله أعلم.

المذيع : جزاك الله خيراً، وبهذه الإجابة نختتم بحمد الله حلقة اليوم من برنامج «أسئلة وفتاوى»، وكان معنا كالعادة فضيلة الشيخ محمّد حسين متولّي. جزاه الله خيراً، ونفعنا بعلمه وتقواه. اللّهم سدِّد خطانا واهدِنا إلى صراطك المستقيم، ولا تَجعلنا من الضَّالّين. آمين.

(يغلق المذيع آلة التّسجيل، ويلفّ الأشرطة، ثمّ يرتّبها في حقيبة الكتف الّتي يحملها).

المذيع : شكراً يا شيخي. لقد أفضت وتألّقت. كانت حلقة اليوم رائعة.

الشيخ متولّي : تتملّقني بالكلام لكي تصرفني عن الموضوع الجوهري.

المذيع : آه.. يا شيخ.. ماذا أقول! لعن الله البيروقراطيّة.

الشيخ متولّي : تجاوزنا العشرين حلقة، ولم نقبض شيئاً.

المذيع : حقّك يا شيخ. ولكنّ المحاسبة مشغولة هذه الأيّام بالجرد. إنّ القسائم جاهزة.. وعلينا أن ننتظر حتّى يفرغوا من أعمالهم.

الشيخ متولّي : تحدّث إلى المدير. لايجوز أن يماطلوا معي.

المذيع : أعدك أن أفعل.

(ينهض المذيع. يحيّي الشيخ ويخرج. يزحف فاروق حتّى يصير إلى جوار الشيخ).

فاروق : السّلام عليكم يا شيخ.

الشيخ متولّي : وعليكم السّلام.

فاروق : أريدأن أسألك يا شيخ.. هل يجوز أن يسكت المرء على المنكر؟!

الشيخ متولّي : معاذ الله.. كيف يجوز السكوت، والرّسول ﷺ قال: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، وإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» اللّهم قوّنا وقدّرنا على محاربة المنكر باليد واللّسان والقلب جميعاً.

فاروق : إذن هذا هو وقتك يا شيخ. إني أستنجد بمروءتك ودينك.

الشيخ متولّي : اللّهمّ اجعلنا من أهل المروءات، وانصرنا على جاهليّة هذه الأيّام. ولكن ماذا هناك.

فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. إنّ الحيّ يغرق في الرّذيلة، والموبقات وصلت إلى المدرسة.

الشيخ متولّي : تخبرني أنّ الموبقات وصلت إلى المدرسة. ولكن هذه المدارس التي سميّتموها مدنيّة هي الموبقات بعينها.

فاروق : أتعني أنّ المدارس بذاتها!

الشيخ متولّي : نعم.. إنّ المدارس بذاتها هي الموبقات..

فارق : ربّما طرأ عليها بعض الفساد. وهذا ما جئت من أجله.. ولكن المدارس هي التي تربّي الأجيال، وتزوّدهم بالمعارف والعلوم.

الشيخ متولّي : وماهي هذه المعارف والعلوم؟! أهي المعارف والعلوم النافعة، أم تلك التي يوسوس بها الشيطان؟ إنّ العلم النّافع هو ما يزيد في خوف المرء من الله تعالى، ويزيد في بصيرته بعيوب نفسه، ويزيد في معرفته بعبادة ربّه، ويقلّل من رغبته في الدّنيا، ويزيد في رغبته بالآخرة، ويفتح بصيرته بآفات أعماله، حتّى يحترز منها، ويطلعه على مكايد الشّيطان وغروره حتّى يجتنبها. هذا هو العلم النافع الّذي حضّنا الله ورسوله على طلبه وابتغائه. وكلّ علم لا يدعونا من الدّنيا إلى الآخرة، فالجهل أعوَد علينا منه. وإنّي أستعيذ بالله من علم لا ينفع. قال ﷺ: «اللَّهُمَّ إنّي أعُوذُ بِكَ مِن عِلمٍ لايَنفَعُ، وقَلبٍ لايَخشَعُ، وعَمَلٍ لايَرفَعُ، ودُعَاءٍ لايُسمَعُ» فهل نجد هذه

العلوم في مدارسكم المدنيّة؟! لا.. تصفّحت علومكم، فلم أجد إلّا فضولاً زيّنه كفّار الغرب وسمّوه علماً. وما تلك الفلسفة والاجتماعيات والطبيعيّات والفلك والرّياضيّات إلّا وسوسات شيطانية، وضعها الكفّار، كي تُضِلّ المرء، وتزرع في قلبه الشكّ، وترمي به إلى هاوية الاستكبار والإلحاد.

فاروق : لا أدري يا شيخ. لم يخطر لي أن يكون هذا هو رأيك بالمدارس!

الشيخ متولّي : وهل خطر لك من قبل، أن تعرف رأيي بالمدارس؟! كم مرّة جئت إلى الجامع؟

فاروق : (مرتبكاً) أعترف أنّي مقصّر.

الشيخ متولّي : من السهل أن تقول الآن، ودون رهبة، إنّي مقصّر. ولكن حين تقف صغيراً وعارياً في حضرة الخالق جلّت قدرته، ستودُّ لو يفقأون عينيك، أو يجزُّون لسانك، ولا تضطرّ لقول هذه العبارة.

فاروق : (مضطرباً وحانقاً) إنّك تربكني يا شيخ. حين جئت، لم أتوقّع أنّنا سنخوض هذا النّقاش. ولذا أرجو أن تعذرني إذا بدوت مرتبكاً أو حائراً. إنّي مؤمن والحمد لله. وقد ربّاني أبي، وكان شديد الورع والتّقى، على حبّ العلم، والاستزادة منه، وحين توفّي، وكنت صغيراً، قال لي، وهو على فراش الموت.. ما تزال كلماته محفورةفي ذاكرتي كأنّي الآن أسمعها.. «تعلّم وادخل الجامعة». ورغم الفقر، وضيق الحال نفّذت وصيته، ونلت إجازة في الرّياضيات. ولم أشعر في أيّ يوم أنّ دراستي مسّت إيماني في شيء. ولكن.. واجهني اليوم حادث خطير، وظننت أنّك الوحيد الّذي يمكن أن يساعدنا في علاجه.

الشيخ متولي : قبل أن تقصّ عليّ حادثك الخطير، أريد أن تعدني بالتردّد على الجامع، وحضور دروسي. ولعلّنا نواصل الحديث عن المدارس، ويهديك الله إلى الحقّ.

فاروق : أعدك أن أفعل..

الشيخ متولي : ماهي حكايتك؟

فاروق : هذا الصّباح.. اكتشفت أنّ بعض الطالبات يتردّدن على بيت الستّ فدوى. ولا ريب أنّك تعرف يا شيخ، ماذا يعني التردّد على بيت الستّ فدوى!

الشيخ متولّي : وماذا يعني التردّد علي بيت الستّ فدوى يا أستاذ؟!

فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. ألا نعلم جميعاً ما يحدث في بيتها؟

الشيخ متولّي : إذا كنت تعرف.. أفصح وقل لي ماذا يحدث؟

فاروق : منذ سنتين، حين اكتمل البيت، وبدا واضحاً ما يدور فيه، ثار في الحيّ لغط كثير. وقيل لي إنّك استنكرت مع المستنكرين، وأنّك أشرت إلى البيت في خطبة الجمعة، واعتبرته علامة على التفسّخ والانحطاط.

الشيخ متولي : قيل لك، ولم تسمع بأذنيك!

فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. كان الجميع يتحدّثون عن ذلك. في المدرسة، وخارج المدرسة. وسرت شائعات أنّ أكابر الحيّ يفكّرون في هدم البيت وإزالته. جرت، ومازالت تجري أحاديث كثيرة عن الفجور الّذي يحدث فيه.

الشيخ متولّي : هل تعلم يا أستاذ أنّك تخوض في أعراض النّاس بلا احتشام؟ وهل تعلم أنّ الغيبة أشدّ من ثلاثين زنية في الإسلام؟ ومعنى الغيبة أن تذكر إنساناً بما يكرهه لو سمعه. فأنت مغتاب، ظالم، وإن كنت صادقاً، ويكفيك زاجراً عن الغيبة قوله تعالى: ﴿ولا يَغتَب بَعضُكم بَعضاً، أيُحِبُّ أَحَدُكم أن يَأكُلَ

لَحمَ أَخيهِ مَيتاً فَكَرِهتُموه﴾ لقد شبّه الله سبحانه وتعالى المغتاب بآكل لحم الميتة، فما أجدرك أن تحترز منها! وهناك أمر لو تفكّرت فيه لمنعك من غيبة المسلمين. وهو أن تنظر في نفسك هل فيك عيب ظاهر أو باطن، وهل أنت مقارف معصية سراً أو جهراً؟ وإن نظرت إلى ظاهرك وباطنك، فلم تطلع فيهما على عيب ونقص في دين أو دنيا، فاعلم أنّ جهلك بعيوب نفسك أقبح أنواع الحماقة، ولا عيب أعظم من الحمق. ولو أراد الله بك خيراً لبصّرك بعيوب نفسك. فرؤيتك نفسك بعين الرّضا غاية في الجهل والغباوة. ثمّ إن كنت صادقاً في ظنّك، فاشكر الله تعالى عليه، ولا تفسده بثلب النّاس، والتّمضمض في أعراضهم، فإنّ ذلك من أعظم العيوب. وإنّ الله سبحانه وتعالى رأف بنا فأمرنا أن ندرأ الحدود بالشّبهات. وسيّدنا عمر رضي الله عنه طبّق حدّ القذف على ثلاثة من الرّجال الأربعة الّذين اتّهموا المغيرة بن شعبة بالزّنى، لأنّ رابعهم لم يستطع أن يجزم أنّه رأى الميل في المكحلة. فانظر إلى تحوّط عمر، وخوفه من إقامة الحدّ مع وجود الشبهة، ولو كانت ضئيلة. منذ قليل تباهيت بإيمانك وعلمك والآن تأتي وتتحدّث بطيش وخفّة عن بيت فجور وزنى. فهل يتفّق هذا مع خلق المؤمن أو العالم؟!

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. لست ممّن يخوضون في أعراض النّاس، ولم أكن يوماً نمّاماً أو مغتاباً. ولكنّي أعلم أنّ النّاس يتحدّثون عن ذلك وكأنّه بداهة. ولي زملاء يتعوّذون ويحوقلون حين يذكر البيت أمامهم، أو حين يمرّون قربه.

الشيخ متولّي : لولا الظّنّة لدخل الإنسان الجنّة. قل لي يا أستاذ.. هل تعرف من يعمّر مساجد الله؟ ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ

واليَوم الآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاة وآتى الزَّكَاة ولَم يَخشَ إلاَّ اللهَ﴾ صدقَ الله العظيم. فهل يجوز أن نصف هذا المؤمن الّذي يعمّر المساجد بالفاجر الزّنيم، أو بقرين الشّيطان الرّجيم. ما دفعته الستّ فدوى لرفع مآذن هذا الجامع، وتزيين قبابه يربو عمّا دفعه أي محسن في هذا الحي. وهي تغدق في الهبات والصدقات، ولديها الكثير من المشاريع التي سيعمّ خيرُها الحيَّ كلّه. ومع هذا تأتي لترميها بالنّمائم والشّبهات.

فاروق : شيء لايصدَّق!. يا فاطر السّموات والأرض.. قلبت رأسي. لا أعرف ماذا أقول!. إن أفكاري تتشابك وتختلط. تدافع عنها بحميّة وحماسة! هذا شيء لايصدّق! شيء غريب وغامض!

الشيخ متولّي : أتمنّى فعلاً أن أقلب أفكارك، وأن أجعلك ترى أن الفساد هو في المدرسة التي تعمل فيها، وهو في العلم الّذي تعلّمه، وبدلاً من تصيّد الشّبهات، والخوض في أعراض النّاس، ليتك تواجه الفساد الّذي تحيا فيه **(يرتفع صوت المؤذّن داعياً لصلاة الظهر. يمسح الشيخ متولّي وجهه)** الله أكبر. قم إلى الصلاة، وطهّر قلبك بالتّقوى. إذا غسلت باطنك بالتّقوى، ترتفع الحجب بينك وبين ربّك، وتنكشف لك أنوار المعارف، ويتيسّر لك من العلوم ما تستحقر به هذه العلوم المحدثة، الّتي لم يكن لها ذكر في زمن الصّحابة والتّابعين. وإن كنت تطلب العلم من القيل والقال والمراء والجدال فما أعظم مصيبتك، وما أكبر خسرانك! **(ينهض)** هيّا.. ألن تنضمّ إلى الصلاة؟

فاروق : إنّي.. إنّي..

الشيخ متولي : لعلّك جنب..

فاروق : نعم.. نعم.. لم أغتسل من الجنابة.

الشيخ متولّي : أنصحك أن تستدرك أمرك، وتصلح حالك قبل أن يفوت الأوان. ولا تنس وعدك بالتردّد على الجامع. يجب أن تسمع دروسي حول الجاهليّة الّتي يغرق في كفرها مجتمع هذا الزّمان.

(يمضي الشيخ. يبقى فاروق جالساً وذاهلاً لفترة).

فاروق : (مغمغماً) سأفعل..

(تتلاشى الإضاءة).

المؤلف : وكانت السّاعات تدور..

اجتاز فاروق صحن الجامع مترنّحاً، وحاملاً حذاءه. فاضت معدته. ودهمه غثيان حاد ومؤلم. خرج مسرعاً، واتّكأ على حائط الجامع محاولاً أن يتقيأ. جاشت معدته، وارتفعت في تشنجات متلاحقة، ولكنه لم يخرج شيئاً. كانت تنبعث من فم الشيخ متولي رائحة كريهة. رائحة بخر يتصاعد من طعام متعفن، ومن غائط. ارتدى حذاءه، ومسح العرق الذي غطّى وجهه رغم برودة الجو. خف الغثيان، واشتد الطنين في رأسه. اللا مبالاة تواطؤ. المدارس هي الموبقات. وجه ثريّا واللّؤم المتيبس عليه. المدير. الستّ فدوى ترفع مآذن الجامع، وتزيّن قبابه. أصلح حالَك. قم إلى الصلاة. أين يعيش؟ ماذا حدث بالضبط؟ أهو يومٌ ككلِ الأيّام! يومٌ حقيقيّ أم أنّه حلمٌ وهلوسة! ودّ أن يعود إلى بيته. حقّاً.. لماذا لايعود إلى بيته؟! استوقفه رجل رث الهيئة، مشروم الشفتين، وقال له بلهجة هي أقرب إلى الأمر منها إلى السؤال: أعطني سيجارة. فأجابه مرتبكاً: آسف.. إنّي لا أدخّن. عقّب الرّجل ساخراً: ولماذا لا تدخّن؟.. وارتبك فاروق: لا أدري.. هكذا.. إنّي لا أدخّن. أمسك الرّجل كمّه، وتفرّس في وجهه. يا الله ما أبشع وجهه! ثمّ قال مهدّداً: المرّة القادمة أنصحك أن تدخّن. ثمّ تركه ومشى. أهذه هي المدينة التي يحيا فيها أم أنّها مدينة أخرى! ماذا يحدث؟ وما قاله الشيخ متولّي لايمكن أن يكون حقيقيّاً. هو يذكر جيّداً غليان النّاس وهياجهم، حين تلألأ البيت، وانكشف مايجري فيه. ويذكر

أيضاً أنّ اسم الستّ فدوى كانت تلوكه الألسنة كوصمة أو شتيمة. كان ذلك منذ سنتين تقريباً. وتوقّف برهة. الآن يلاحظ أنّ هياج النّاس لم يستمرّ طويلاً، وأنّه منذ سنة أو أكثر، لم يعد يسمع أحداً يذكرها بسوء. وهذا فعلاً محيّر وغامض. كان يتجه نحو السّراي. وهو الاسم الذي يطلق على المبنى القديم الّذي يوجد فيه مدير منطقة المزرعة. وميسون القاضي هي ابنته. لم يكن يستطيع التراجع. لقد دخل نفقاً وحيد الاتجاه، وكان مصمّماً على المضيّ إلى نهايته. كان يحثّه شعور بالمسؤوليّة. وفضول غامض وجامح لا يعرف سببه.

المشهد الثّالث

(مكتب مدير المنطقة عدنان القاضي. مكتب واسع تزيّن جدرانه صور مبتذلة لبعض المناطق الأثرية، وفتيات بالأزياء الشعبيّة. على الحائط خلف المكتب صورة كبيرة لرئيس الدّولة بالثياب المدنيّة. تكتظّ الغرفة الواسعة بأثاث متنافر، بعضه شرقي، وبعضه الآخر عصريّ جدّاً. السيّد عدنان القاضي ومدير مكتبه أحمد الدُّبغي).

أحمد : سيّدي.. حالة جلال الشّاطي مقلقة.

مدير المنطقة : ماذا.. هل عاوده الجنون؟

أحمد : وأي جنون! نوبة اليوم تجاوزت كلّ الحدود.

مدير المنطقة : ماذا فعل؟

أحمد : في الصباح كان هادئاً وطبيعيّاً.. وفجأة رفس كرسيّه، واعتلى مكتبه، وراح يصيح «أيّها الخصيان.. الموت ولا التّعريص مع دولة هذه الأيام». نهض رئيس الدّيوان وسائر الموظّفين، وحاولوا تهدئته، فأخرج عضوه، وبال عليهم، ثمّ قفز خارجاً إلى بهو السّراي، وراح يصرخ وسط دهشة النّاس.. «الموت ولا التّعريص مع دولة هذه الأيّام».

مدير المنطقة : أعوذ بالله.. هذه فضيحة مجلجلة. وأين هو الآن؟

أحمد : بصعوبة، تمكّن ثلاثة من رجال الشرطة أن يحملوه، ويحجزوه في غرفة المصلّى. وهم الآن ينتظرون أوامرك.

مدير المنطقة : لا.. هذه المرّة ينبغي أن نهذّبه قبل أن نسلّمه إلى مستشفى المجانين. قل لهم أن يحجزوه في الانفراديّة، وأن يرتّبوه على ذوقهم. لقد تحمّلته على مسؤوليتي مرّتين وهذا يكفي.

أحمد : لا ريب أنّه مجنونٍ، أفزعني منظره يا سيّدي. كان متغيّر السّحنة كأنّ مسّاً أصابه. عيناه جاحظتان والزّبد يتطاير من فمه. أف. منظر فظيع.. كان ينبغي أن نعرف منذ النّوبة الأولى.. **(متردداً)** لماذا لا نحوّله إلى الأمن، ونتخلص من هذه القصّة!

مدير المنطقة : **(ينظر إليه غاضباً)** لا.. دع الأمن جانباً. أحياناً تنقصك يا أحمد لمعة الذّكاء. لكي نتخلص منه يجب أن يبقى تحت سيطرتنا، فهو موظّف قديم، ويعرف الكثير من أسرار المديريّة.

أحمد : نعم..هذا هو الرّأي السّديد، آه يا سيّدي كم ينبغي أن أتعلّم منك!

مدير المنطقة : طيّب.. طيّب.. ماذا هناك أيضاً؟

أحمد : الأستاذ فاروق ينتظر في مكتبي.

مدير المنطقة : أدخله..

أحمد : حاضر.

(يخرج أحمد، وبعد قليل يدخل فاروق مرتبكاً ومكفهرّ الوجه، ينهض المدير من وراء مكتبه، ويستقبل فاروق ببشاشة كبيرة، ويقوده إلى كنبة قرب المكتب، ويدعوه للجلوس).

مدير المنطقة : أهلاً.. أهلاً... كنت أتمنّى هذه الزّيارة منذ زمن بعيد.

فاروق : **(مازال مرتبكاً)** شكراً على ترحيبك. لم يخطر لي أنّك تعرفني، وأخشى أنّي أتطفل على وقتك الثّمين.

مدير المنطقة : كيف لا أعرفك، ومدير المدرسة لا يَمَلّ من الحديث عن أستاذ الرّياضيّات، الّذي لا يُشقُّ له غبار! وعليك أن تضيف مدائح ابنتي وزميلات ابنتي. لا.. إنّي أعرفك جيّداً يا أستاذ

فاروق. واليوم بالذات كنت أتوقّع زيارتك، وما كنت لأجعلك تنتظر لولا هذا الحادث المؤسف، هل رأيته حين دخلت إلى السّراي؟

فاروق : من؟

مدير المنطقة : موظّف، اختلّ عقله، وداهمته نوبة جنون مفاجئة، فراح يصرخ في النّاس، ويخرّف في الكلام.

فاروق : نعم رأيت رجلاً غريب الأطوار وسط حشد من النّاس، ثمّ جرّه رجال الشّرطة وأخذوه بعيداً.

مدير المنطقة : هذا هو، إنّه جمال السّاطي. شيء مؤسف، حقّاً إنّه شيء مؤسف، هل تصدّق؟ كان هذا الرّجل، وطوال عشرين سنة، موظفاً مثاليّاً. كان هادئاً، مجدّاً مخلصاً، لم تبقّع سجلّه الوظيفي ملاحظة، أو هفوة. وذات يوم منذ بضعة أشهر بدأ يظهر عليه الاختلال. هكذا.. فجأة، رمى المعاملات الّتي كانت بين يديه، واقترب من رئيسه بهدوء ودسّ يده بين فخذيه وصاح «رئيسنا ليس له خصيتان»، وكان ذلك غريباً. وأصيب الجميع بالذهول. أمّا هو فقد راح يدور على زملائه، ويكرّر معهم الحركة ذاتها، ثمّ يصرخ «وهذا أيضاً ليس له خصيتان». وكانت حركته سريعة، ولم يستطع أحد أن يمسك به. دار على الغرف وتسلّق السّلالم، وهو لايفتأ يكرّر حركته ويصرخ «وهذا أيضاً». كان الوضع مؤسياً ومضحكاً معاً. والطّريف أنّ الوحيد الّذي وجد لديه خصيتين هو عامل البوفيه الّذي يقدّم الشّاي والقهوة. كانت حالة هيستيرية واضحة. ولم أشأ أن أتّخذ أيّ إجراء قانوني يضرّ به. كلّ ما فعلته هو أنّي أرسلته إلى طبيب نفسي. وبالفعل بدأ علاجه، وفي غضون فترة قصيرة تحسّنت أحواله، وعاد ذلك الرّجل

الهادئ، الصموت، المجدّ. وبعد شهرين أصابته نكسة جديدة، وعالجناه مرة أخرى، ولكن يبدو أنّ الحالة صارت مستعصية إلى حدّ ما. يعتقد الطبيب أن ليس لديه مشاكل جنسيّة، أمّا أنا فأظنّ أنّ مشكلته الأساسيّة ومشكلة كثيرين أمثاله هي، باختصار، الجمود والعجز عن التكيّف. نعم.. هذه هي المشكلة الجوهريّة الّتي تواجه مجتمعنا اليوم.

(يدخل عامل البوفيه حاملاً صينيّة عليها فنجانا قهوة، يضع فنجاناً أمام فاروق والآخر أمام المدير، المدير يغمز فاروق، ويشير نحو العامل، يخرج العامل).

مدير المنطقة : هذا هو الرّجل الّذي باركه الأخ جلال ووهبه خصيتين. تفضّل يا أستاذ **(يتناول علبة سجائر ويقدّم سيجارة لفاروق).**

فاروق : **(وهو يمدّ يداً ترتعش لتناول سيجارة)** أنا لا أدخّن، أقلعت عن التدخين منذ سنة، لكنّي اليوم أحتاج إلى سيجارة.

مدير المنطقة : دخّن يا أستاذ **(يشعل له سيجارة بولاّعة من ذهب)** ومهما كان التدخين مضرّاً فإنّ الضغوط العصبيّة والقلق أشدّ ضرراً وفتكاً بالإنسان. كنّا نتحدّث عن هذا المختلّ. نعم إنّي أعتقد أنّ مشكلته الجوهريّة هي التزمّت وعدم التكيّف. نحن نعيش وسط التغيّر. إنّه تغيّر هائل يطول كلّ شيء. إنّ كلّ ما تعلّمناه من آبائنا وأجدادنا، وما حسبناه صلباً وثابتاً ها هو يضمحلّ، ويتحوّل إلى دخان. المبادئ والتصوّرات، القيم والأخلاق. كلّ شيء.. كلّ شيء يتغيّر ويتحلّل إلى غبار. وأنا لا أبالغ إذا قلت إنّنا نعيش تحوّلاً ثوريّاً عميقاً. نعم يا أستاذ أسمّيه ثوريّاً، لأنّ الثورة الحقيقيّة ليست طنين الشّعارات وترتيل العقائد والمحفوظات، بل هي الانفتاح على العصر ومنجزاته، وعلى العالم وأسواقه. هذه هي الثّورة

الحقيقيّة. إنّ الّذين حاولوا أن يسوّروا البلاد، وأن يحجزوا العصر على الحدود، انهزموا، ولم تبق منهم إلاّ بعض الذكريات المريرة. وهذا الرّجل العظيم **(مشيراً إلى الصورة)** هو الّذي أدرك أنّ البلاد لا تسوّر، وأنّ العصر لايُحتَجَز على الحدود كأنّه مسافر مشبوه، وأن الانفتاح على العالم وأسواقه هو الثورة الفعليّة، وهو الازدهار الحقيقي. لاحظ، خلال عقدين من الزّمن تبدَّل وجه البلد. ورشات بناء وأموال ومشاريع. أخيراً إنّنا ندخل العصر. ودخول العصر لايمكن أن يتمّ دون هزّات وتوتّرات. هذه المرحلة لا يمكن أن تتعايش مع التزمُّت والأفكار الجامدة والأخلاقيّات البالية. هذه المرحلة تحتاج إلى روح مرنة وانسيابيّة. ومن لا يستطيع أن ينمّي في داخله مثل هذه الرّوح، فسيضيع أو يُرمى في مصحّ عقلي. إذا كانت أمراض القلب والسّكر والأورام والحالات العصابيّة في ازدياد، فلأنّ النّاس في بلادنا لم يستطيعوا أن ينسلخوا عن قديمهم وجمود قيمهم، ويدخلوا إلى مغامرة العصر. ولكن هل نتوقّف من أجل بعض المرضى والبائسين؟ طبعاً لا.. فالتوقّف يعني الانتحار. لأنّ العصر كالتيّار الجارف إذا ضيّعنا إيقاعه ضعنا، ولايبقى لنا مكان في التّاريخ. سمعت كثيرين يتذمّرون من تدفّق المصطافين العرب على البلد، ويروون لك قصصاً وسوالف عن انحلال الأخلاق وهدر الكرامة. ولكن هل يعلم هؤلاء أن السياحة هي صناعة وتنمية؟ ليس لدينا بترول، ولكنّنا نملك طبيعة جميلة ومناخاً لطيفاً وشعباً خدوماً. وهذه كلّها في مفاهيم العصر رساميل تُثمّر وتُنتِج ازدهاراً وبحبوحة. يريدون أن يستمتعوا! ليكن.. ولماذا لايستمتعون! إنّهم لا يأخذون أيّ شيء بالمجان. وإذا لم

أوفّر لهم المتعة الّتي يريدون شراءها، فإنّهم سيجدونها موفورة حتّى في أشدّ البلاد ازدهاراً وتقدُّماً. رأيت الأوروبيّين بكلّ مدنيّتهم وتعاليهم يغرفون المصطفاين العرب كما تُغرف الكنوز. ولم أسمع أحداً في بريطانيا أو فرنسا يتحسّر على الكرامة أو الأخلاق. لقد دخلنا العصر، ولكن مازالت عقليّة الكثيرين تراوح في زمن البداوة، أو المفاهيم القرويّة الضيّقة. وهذه الازدواجيّة خطيرة إذا استمرّت، لأنها في الواقع ستكبّل خطانا، وستمنع بلادنا من التفتّح العصري الكامل، ومن مجاراة الأمم في موكبها المتدافع إلى التقدّم والرّفاه. إنّ الكلمات والنّعوت هي الأخرى يمكن ان تتحوّل إلى قيود تشلّ الحركة. خذ مثلاً هذه الألفاظ: «الرشوة»، «النهّب» «الفساد»، «الإثراء»، «النّصب»، «الاحتيال». كلّ هذه الألفاظ الخارجة من قاموس بائد، هي قيود يستخدمها المتزمّتون كي يعرقلوا عمليّة الانفتاح، وكي يمنعوا تحديث البلاد. إنّ العالم العصري ألقى هذه الألفاظ والقاموس الّذي يحتويها في مكبّ النّفايات. إنّه يستخدم كلمات «المنفعة» و«العمولة» و«الرّبح» و«اقتناص الفرص» و«العصاميّة» و«المرونة» و«العلاقات العامّة». وفي الواقع لايمكن أن نكون في العصر، وأن نستخدم في الوقت ذاته لغة عصر تجاوزه الزّمن واضمحلّ. نعم كلّ شيء يتغيّر، ويقتضي أن نتغيّر. لاشكّ انّي أثقلت عليك، وما قلت إلاّ ما تعرفه أفضل منّي. إنّ أستاذاً لامعاً في الرّياضيّات الحديثة يعرف عن روح العصر، أكثر ممّا يعرفه رجل تخبّط في كليّة الاقتصاد سنوات عديدة، ولم يحصل على شهادته إلاّ بشقّ النفس. هل أطلب فنجاناً آخر من القهوة؟ **(يرنّ الجرس قبل أن يجيب فاروق)**

نعم إنّ فنجان قهوة ضروري الآن، كي تنفض من رأسك ثرثرتي. جرفتني الحماسة لأنّي لا ألتقي كلّ يوم عصريّاً أستطيع أن أبوح له بما يدور في ذهني دون تحفظ أو مراوغة. **(يدخل الآذن)** هات لنا قهوة مظبوطة وماءً بارداً **(يلتفت إلى الأستاذ)** أم لعلّك تريد شيئاً آخر!

فاروق : **(مجفلاً)** لا.. لا شيء **(يتردد)** أريد سيجارة.

مدير المنطقة : طبعاً.. طبعاً **(ويقدّم له سيجارة، ثمّ يشعلها بالولاّعة الثمينة)** أترى هذه الولاّعة! إنّها غالية جدّاً بالنسبة لي، لا لأنها من ذهب، وثمنها غالٍ، بل لأنّها هديّة من ابنتي ميسون.. آه هذه البنت! إنّها تدهشني. ربّما لم يتح لك وسط ازدحام الصفّ وانشغالك بالدروس، أن تتعرّف عليها جيّداً، ولكنّها حقيقة مدهشة، لا أقول هذا لأنها ابنتي، بل لأنّها كذلك فعلاً. أحياناً أفكّر أنّ العصر هو الّذي أنجبها، وغذّى أنسجتها. إنّ قابلياتها، وإيقاعها، والآلية التي يعمل بها عقلها، كلّها تدهشني، وتعطيها منزلة خاصّة في قلبي. إنّها مختلفة عن إخوتها. ولا أخجل إذا قلت لك إنّي أحياناً أتعلّم منها، وأحياناً هناك مشاكل لا أستطيع حلّها، إذا لم تمدّني برأيها.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. ولكنّي جئت كي أتحدّث معك عن ميسون.

مدير المنطقة : أحقاً.! ماذا تنتظر إذن! حدّثني.. أهو أمر يتعلّق بالدراسة!

فاروق : لا.. لا ليست الدّراسة، بل هو أمر أخطر.. كيف أقول لك! يا فاطر السّموات والأرض.. هل تعرف يا سيادة المدير أنّها.. أرجوك لا تؤاخذني.. ولكنّي سمعت ذلك بأذني. إحدى زميلاتها قالتها، وهي لم تكذبها.. هل تعلم أنّها تتردّد على بيت الستّ فدوى!

مدير المنطقة : نعم.. وهي تحبّ زوجتك كثيراً.

فاروق : زوجتي؟!

مدير المنطقة : إنّهما تلتقيان عند الستّ فدوى. وهي تقول لي إنّ زوجتك هي الوحيدة التي استحقّت صداقتها.

فاروق : ماذا تقول! يا فاطر السّموات والأرض.. زوجتي عند الستّ فدوى؟

مدير المنطقة : والستّ فدوى هي الأخرى تحبّ زوجتك كثيراً وتدلّلها. إنّك محظوظ يا أستاذ. لديك زوجة متميّزة تثير الإعجاب وتميل نحوها القلوب. إنّ ابنتي لا تصادق بسهولة، والستّ فدوى صعبة المراس ولا تدلّل أيّاً كان. لاشكّ أنّ زوجتك متميّزة كي تكسب صداقة ابنتي ودلال الستّ فدوى.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. إنّي لا أصدّق. **(ينهض)** لا.. هذا مستحيل.. لايمكن أن أصدّق.. يا فاطر السّموات والأرض.

(يندفع خارجاً وهو يردّد كالممسوس يا فاطر السّموات والأرض).

مدير المنطقة : ألن تشرب القهوة يا أستاذ!

(يبتسم ابتسامة ملغزة.. يضع سيجارة في فمه، يشعل الولاّعة عدّة مرّات، وبينما يشعل سيجارته يتلاشى المشهد).

المؤلّف : وكانت السّاعات تدور..

لم يكن يسير، بل كان يهوي في جروف عميقة، يغطّي قيعانها ضباب صدئ اللّون، وتتزاحم فيها شتّى أنواع الزّواحف والأفاعي. كلّ شيء صلب يتفتّت، ويتحوّل إلى غبار. القيم والمفاهيم والأخلاق. وميسون تحبّ زوجته، والغيبة أشدّ من ثلاثين زنية في الإسلام. ورائحة الشيخ.. رائحة الشيخ الّتي تثير الغثيان. والولّاعة الذهبيّة. أين هو؟! وماذا يجري! تعلّق بأذيال سترته عنقود من المتسوّلين الصّغار قذرين، دبقين، مفزعين. كان فظّاً وقاسياً، أوقع فتاة، وركل صبيّاً، وحين أفلح في التخلّص من إلحاحهم، لاحقه سيل من الدّعوات والشتائم البذيئة. هذه مدينة لا يعرفها، ولم يسر في شوارعها! أيمكن أن تتغيّر المدن في يوم واحد؟! وأسرع الخطى. كان الجحيم يناديه، وكان محكوماً بالذهاب إليه. ولطمه شاب كثّ الشاربين يرتدي ثياباً خضراء مرقّطة، وصاح فيه: «انظر أمامك يا حمار». ولكنّه تظاهر أنّه لم يسمع، وتابع طريقه. لا.. لم تعد المدينة هي المدينة.

المشهد الرابع

(غرفة الست فدوى.. غرفة باذخة ومكسوة بحميمية خاصة. تتوزّع على جدرانها مرايا كبيرة مختلفة الحجوم ومرتّبة بصورة تبرز المرء من كلّ جهاته وبكلّ أوضاعه. الإضاءة موزّعة توزيعاً أنيقاً. في تجويف في الحائط يتخفّى سرير عريض يستر ترفه بغشاء شفّاف من الحياء والذّوق. وفوق السّرير عُلّقت لوحة لإمرأة عارية تدير ظهرها للناظر بينما يلتفت رأسها بحركة خفيّة ونظرة غامضة. إنّ الانطباع الذي تخلفه اللّوحة هو الحياء وليس الإثارة. ولكن كلاً من السّرير واللوحة معاً يطفحان، وربّما بسبب الحياء بالذات، بالغواية.. ترتدي فدوى ثوباً منزلياً سابغاً، ووجهها خال من المساحيق. تتمشّى في الغرفة بخفّة الظّلال. تدخل نرجس، فتاة صغيرة تبدو كالدمية بسبب مكياجها الفاقع وملابسها الصّارخة. حين تتكلّم أو تتحرّك يتعزّز الإحساس بأنّها دمية، كما أنّ التناقض الصّارخ بينها وبين فدوى في اللّباس والمكياج، يضفي على الأولى مزيداً من الوقار واللّطافة الإنسانية).

فدوى : هل وصل الأستاذ؟

نرجس : **(هامسة بصوت مستعار)** نعم.. لقد وصل الأستاذ. إنّه مخيف يا معلّمتي. أخشى أن يؤذيك.

فدوى : أدخليه وابلعي لسانك. لا أريد أيّ ثرثرة.

نرجس : حاضر.. ولكن..

فدوى : **(تقاطعها بحسم)** قلت لك أدخليه، واحملي لنا عصيراً طازجاً.

(تخرج نرجس.. تجلس فدوى بحركة أنيقة على إحدى الكنبات. خلال لحظات يدخل فاروق مشعَث الهيئة زائغ العينين).

فاروق : **(كالمذهول)** وإذن.. هذه أنت!

فدوى : أي نعم.. هذه أنا.

فاروق : لديَّ سؤال واحد، وأريد الإجابة عليه.

فدوى : تمنَّيت هذا اللّقاء، فلا تفسد عليَّ متعته. تفضّل واجلس.

فاروق : لا... لاأريد أن أجلس. هو سؤال وجواب ولاشيء آخر.

فدوى : **(تنهض وتجرّه برفق إلى الكنبة)** أرجوك أن تجلس. أعرف ما تعانيه، وأعرف أنك متعب. دعنا نهدأ قليلاً. دعنا نسترخِ قليلاً. سنتحدّث كثيراً، ولكن ارتحْ واسترخ أوّلاً.

(يجلس فاروق كالمنوّم، يختلس المكان بنظرات خاطفة ومبهورة. تفاجئه صورته وهي تتكرّر في المرايا إلى مالانهاية. يبدو وكأنّ خدراً يسري في أوصاله).

فاروق : **(يردّد مسحوراً)** يا فاطر السّموات والأرض.. **(يهبّ بغتة وكأنّه يقاوم)** لا.. لا أريد أن أجلس. لن تأكلي عقلي بهذه الأجواء الشيطانية. هو سؤال واحد وأريد جوابه.

فدوى : ليتنا نستطيع أن نبدّد غموض الحياة بسؤال وجواب **(تقترب منه وتزداد رقّة)** اجلس يا فاروق. حذفت كلمة الأستاذ، لأنّها كالحجاب تفصل بيننا، وتمنع تلامسنا.. وأنا أريد أن نتلامس. **(يصبح مطواعاً)** تعال واجلس. **(يجلسان معاً على كنبة واحدة)** هل تعرف أنّ الحياة والواقع وهذا العالم أعقد من سؤال وجواب؟

فاروق : ماذا تحاولين؟! لن تخدعني الألاعيب. لديَّ سؤال واضح، وأريدأن أسمع منك جواباً واضحاً.

فدوى : **(تمسح على شعره فينتفض مبتعداً عنها)** ليكن.. ليكن.. ستحصل على جوابك الواضح ولكن أنا.. أنا الّتي تلاحقها يا فاروق منذ الصباح، وتثير ضدّها المدرسة والجامع والسّلطة، ألا يحقّ لي أن أطرح سؤالاً، أو أوضح نفسي قليلاً. تمنّيت أن ألقاك لأنّي خمّنت أنّك الرّجل الّذي أستطيع أن أتحدّث إليه. أن أشرح له نفسي. ما أنا بالنسبة لك؟

فاروق : إلى أين تستدرجينني؟

فدوى : إنّي لا أستدرجك يا فاروق. منذ الصباح وأنت تلوك سيرتي، فلماذا لاتقول لي، وفي وجهي ما أنا بالنسبة لك؟

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. هل تظنّين أنّي سأتراجع، أو أخاف. إنّكِ.. إنّكِ..

فدوى : **(بعذوبة)** قل يا فاروق.. إنّي..

فاروق : السّتّ فدوى.

فدوى : لا.. لاتراوغ يا فاروق.

فاروق : إنّي لا أراوغ.. السّتّ فدوى.. العاهرة.

فدوى : **(تتخلّل شعره بأصابعها)** والقوّادة.

فاروق : إنّكِ تخربين البيوت، وتغرقين الجميع في وحل الفساد والرّذيلة.

فدوى : ربّما كنتُ شيئاً من هذا كلّه. أتعلم؟! لم تخيّبني.. كنت أنتظر رجلاً يقول لي ذلك في وجهي.. كنت أنتظر رجلاً لايأتي إليّ متهافتاً. لأنّه سيكون الرّجل الوحيد الّذي يغريني بأن أشرح نفسي قليلاً. هل تصدّق؟ رغم كلّ شيء، إنّي أشعر بالوحدة مثلك. في أيّ عام تخرّجت؟ **(تدخل نرجس حاملة صينيّة عليها كوبان من عصير البرتقال، تقدّم له العصير**

لكنه يرفض).

فدوى : ضعيها على الطريزة، لاشكّ أنّك جائع، أحضري بعض الشطائر. **(بعد تردّد قصير تخرج نرجس).**

فدوى : **(تناول كوب العصير وتقدّمه له.. برقّة شديدة)** أعرف أنّك ظمآن وجائع، اشربه.

فاروق : **(ينتفض غاضباً وينهض)** يا فاطر السّموات والأرض.. ما معنى هذا؟ ما جئت لأشرب أو لآكل. أريد أن أعرف.

فدوى : لاتعجّل.. حتّى الآن عرفت أشياء كثيرة. **(تناول علبة سجائر)** هل تريد سيجارة؟

فاروق : نعم إنّي أريد سيجارة.

فدوى : إذن، اجلس وتناول شيئاً من العصير. لن أدعك تدخّن على معدة فارغة.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. إنّك تنسجين حولي شبكة من خيوط حريريّة. إنّك تصضـ.. تصط.. يا فاطر السّموات والأرض.. إنّك تستادينني.

فدوى : طيب.. طيّب اجلس وتناول شيئاً من العصير. **(يطاوعها)** أؤكد لك أنّي لا أحاول اصطيادك. أريد أن نتلامس، أن يعرف كلّ منا شيئاً عن الآخر. ويبدو أنّ هذه هي المعرفة الوحيدة الممكنة. هل جرّبت أن تعرف نفسك؟ أمّا أنا فقد ضيّعت الكثير من الوقت والجهد، لكي أكتشف أنّ الإنسان يولد ويموت، ولايعرف نفسه. **(تقدّم سيجارة وتشعلها)** هل رأيت مرّة ظهرك أو قفاك؟ انظر. لقد ركّبت هذه المرايا لكي أرى جسدي من كلّ جهاته. ولكن هل رأيت جسدي دفعة واحدة ومن كلّ جهاته. كنت أريد رؤية كالإشراق المفاجئ، وما رأيته هو أعضاء وتكوينات تتكرّر، وتتعاكس في تعقيد لانهائي. وفي النهاية هذه هي الحياة. سألتك في أيّ عام

تخرّجت، لأنّي أعتقد أنّنا كنا في الجامعة في فترة واحدة تقريباً. كنت في السّنة الرّابعة أدب فرنسي حين تزوّجت. كان زواجاً عائليّاً ومرتّباً أرادوا أن يشفوني به من قصّة حبّ كئيبة.

(تدخل نرجس حاملة صينيّة فضيّة عليها صحن تكوّمت فيه شطائر متنوعة. تضع الصحن وتهمّ بالخروج).

فدوى : ابقي قليلاً. كانت ليلة صيفيّة جميلة، وكنت قد أرضيت نفسي، وتركت الأمور تمضي في مجراها **(إلى نرجس)** اذهبي إلى السرير.

نرجس : **(بفرح طفولي)** أتريدين أن نلعب اللعبة!

فدوى : **(وهي تنهض)** نعم.. وانتبهي جيّداً فاليوم لدينا متفرّج، حاول أن تكوني معتدلة ومقنعة.

نرجس : ألا أحضر الشوارب؟

فدوى : ليس ضرورياً. المهمّ أن تتذكّري العبارات جيّداً.

نرجس : إنّي أتذكّرها ويمكنني أن أزيد عليها.

فدوى : لا.. لاأريد أيّ زيادات، اجلسي هنا على طرف السرير وضعي رجلاً فوق رجل.

نرجس : والشطائر؟! ألا نلعبها عادة، وهو يأكل بشراهة، ويتساقط مع الكلام فتات من الطعام؟!

فدوى : طيّب.. تناولي شطيرة بسرعة. **(بينما تحضّر نرجس الشّطيرة تندسّ فدوى في الفراش)** كنت متكوّرة في فراشي. كانت العمليّة مقرفة وسريعة. كان قد نهض كالفاتح. تناول طبقاً وضع فيه أفخاذ دجاج وفطائر وأشياء أخرى. جلس على حافة السّرير عارياً. وضع رجلاً على رجل وملأ فمه بفطيرة. **(تجلس نرجس على حافة السرير تضع رجلاً على رجل، وتملأ فمها بلقمة كبيرة من الشطيرة).**

الزّوج : (وهو يمضغ) هذا هو الأمر إذن! لم تخبروني أنّ البضاعة مغشوشة.

فدوى : أرجوك لا تكن مبتذلاً.

الزّوج : أأنا المبتذل! وماذا تسمّين ما اكتشفناه منذ لحظة، أهو وقار؟! **(يتساقط فتات على وجهها فتمسح وجهها وتكشّر باشمئزاز)** قولي.. أهو وقار أن تكون القناة سائبة بلا باب أو مغلاق؟! أهو وقار، أن أشتري بضاعة مختومة فأجدها مستعملة وبلا ختم؟!

فدوى : وددت لو أموت. كنت أغوص في الفراش تقزّزاً. قلت.. أرجوك لا تسمّيني بضاعة. اسمع، سأشرح لك. يمكننا أن نتفاهم.

الزّوج : لا.. لا.. لا تحدّثيني عن التفاهم. إنّي مخدوع.. إنّي مطعون.. إنّي أنزف، ولن يتوقّف النّزيف إلاّ إذا غسلت جرحي وعاري.

فدوى : ماذا تنتظر؟ تناول سكّيناً واذبحني.

الزّوج : أذبحك!.

فدوى : أقسم إنّي لن أقاومك، وأعدك ألاّ أصرخ.

الزّوج : إم.. ولِمَ أورّط نفسي؟! أنت تستحقين الذّبح، ولكن البازار لم يكن معك. كان مع أبيك، ومعه وحده يجب أن تُعالَج هذه القصّة.

فدوى : **(صائحة)** لا.. دع أبي جانباً.

الزّوج : كيف أدعه.! هو الّذي باع، وهو الّذي غشّ.

فدوى : **(تنهض وتجثو عند قدميه)** أتوسّل إليك.. إنّ أبي رجل ضعيف. جنّبه هذه المهانة، وافعل بي ما تشاء.

الزّوج : **(ينهض ويتمشّى كالمتباهي)** ولماذا لم تجنّبيه أنت هذه المهانة؟ لماذا أفسدتِ البضاعة، وهي في بيته وتحت رقابته!

فدوى : لست بضاعة، ولا يليق هذا الكلام برجل مثقّف.. أرجوك، إنّنا ناضجان ويمكننا أن نواجه هذه المشكلة بهدوء. فقط دعني أشرح لك. لم تجمعنا قصة حبّ، ولكنّي وطدت العزم على أن نبني يوماً بعد يوم عشّاً يزهر فيه التفاهم والحبّ. قبلت الزّواج وأنا مصمّمة على نجاح هذا الزواج، فلا تترك ردّة فعل غاضبة تفسد مشروعنا.

الزّوج : يا غشائي الضائع، وبكارتي المهتوكة. المشروع الّذي يُبنى على غشّ لا مستقبل له. إنّي مطعون.. إنّي أنزف. وشأني مع أبيك لا معك.

فدوى : وتوسّلت وبكيت، وتمنّيت لو تكون لديه الجرأة، ويغرز سكّيناً في عنقي.

نرجس : والزّوج لا يشبع. **(تتناول شطيرة أخرى)** ويتناول صحناً آخر.

فدوى : ولو كان محزوناً لوَاسيته، ولو كان مجروحاً فعلاً لتحوّلت ضمادة له. كان شيئاً مقزّزاً في ابتذاله وتفاهته. وبعد أن أنهى صحنه الثاني حاول أن يضاجعني ثانية، وهو يدمدم مازلت امرأتي، وشأني مع أبيك لا معك. تلك الليلة ماتت فدوى التي كانت طفلة محبوبة، وتلميذة لامعة، وصبيّة تضجّ بالأماني والأشواق.

نرجس : وفي اليوم التالي ذهبت، أنا الزّوج المطعون طعنة يتدفّق منها دمي وكبريائي إلى الأب، لكي أعرض عليه جراحي وأطلب تعويضي.

(تتخذ نرجس وفدوى وضعيّة الزّوج والأب).

الزّوج : جزاك الله خيراً يا عم. زوجتي بضاعة مغشوشة.

الأب : ماذا تقول يا ابني؟

الزوج : العذراء لم تكن عذراء، ومكان العفّة لم يكن مختوماً.

الأب : أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، ولا حول ولا قوّة إلا بالله

العظيم. هل أخبرت أحداً سواي؟

الزّوج : أستغفر الله يا عم.. هذا سرّ لم يتعدّنا، ولن يتعدانا.

الأب : بارك الله فيك يا ابني. حقاً إنّهن صويحبات إبليس. هذا العارُ لم نعرفه في عائلتنا. ولك عليَّ رغم شيخوختي أن أذبحها بيدي.

الزّوج : لا يا عم، استهدِ بالرحمن. ماجئت لكي أحرّضك على ذبحها. وعلى كلّ ليست لنا مصلحة في الفضيحة، وإثارة زوبعة من القيل والقال، لا يعلم إلاّ الله متى تهدأ أو تتوقّف. قد نموت وذكرنا مايزال على ألسنة النّاس.

الأب : (وهو يبكي) هذا العار لايمكن أن أقبله، أو أداريه.

الزّوج : اهدأ يا عم.. اهدأ. كلّ المشاكل يمكن أن تحلّ إذا توفّرت النّية الطيّبة.

الأب : وأنا الّذي لم أكن أطلب من الدّنيا إلاّ السترة في الآخرة. ملعونة أنت. ملعون ذلك البطن الّذي حملك. اسمع يا ابني. أنت صاحب الحقّ وكما تفصّل ألبس.

الزّوج : أعتقد أنّ السترة مصلحة الجميع. لو فاحت رائحة، أو ثارت فضيحة، لصار مقامك في هذا الحيّ مستحيلاً ولبارت تجارتك. هذه التجارة الّتي أنفقت عمرك، وأنت تبنيها وتنّميها لبنة لبنة.

الأب : هذا صحيح.. ولكن ما ذنبك كي تحمل هذه الغصّة طوال حياتك؟ يشهد الله أنّي أحبّك كابن لي، وأنّي سأوافق على أي حلّ يناسبك. وكما قلت لك أنت صاحب الحق ففصّل وأنا ألبس.

الزّوج : يمكنك أن تتصور أنني لم أنم الليل، وأنّي قلبت الأمر ظهراً وبطناً. سأسامح وسأكون ستراً لك ولعائلتك. ولكن أعتقد أنّك لن تبخل عليَّ بإكراميّة أو تعويض.

الأب : اطلب وإن شاء الله ستجد يدي مفتوحة.

الزّوج : أرجو يا عم ألا تنسب طلبي إلى الطمع. ولكنّنا عائلة واحدة، وأعتقد أن السرّ الذي بيننا زاد قرابتنا عمقاً ولحمة، ولو أعطيتني جزءاً من تجارتك فكأنّك تعطي من يدك اليمنى إلى يدك الشمال.

الأب : هل تطلب جزءاً من تجارتي؟

الزّوج : النّصف أو حتّى الثّلث. إنّي أترك تقدير الأمور لك. وكما قلت نحن في النهاية عائلة واحدة، يجب أن نلتمّ على بعضنا، وألاّ يظهر منا إلاّ الحبّ وطيب الرّائحة.

فدوى : وطأطأ أبي رأسه، وضرب أخماسه بأسداسه. كانت تلك التجارة هي شقاء عمره، وهي حياته. وفكّر يوماً وليلة، ثمّ رضخ ودفع لزوجي تعويضاً يوزاي نصف عمر من التدبير والتوفير. وجاءني زوجي ضاحكاً.

الزّوج : أرأيت؟ لقد تفاهمنا مع الرّجل المستقيم. كلّ شيء يمكن إصلاحه. أستطيع الآن أن أصيح ومن فوق المئذنة.. كانت عذراء.. تلك الفتاة الجميلة الكريمة الحسب والنّسب.. كانت عذراء. وفي ليلة عرسنا تدفّق دمها فبلّل الشرشف والفراش.

فدوى : وعرفت ما حدث.. وتقيّأت. خلال ثلاث أيام، وأنا أتقيّأ. ولكن وسط القيء، وفي المرحاض كانت فدوى تولد.. فدوى أخرى، لا يكاد يربطها بتلك التي ماتت إلاّ ملامح الوجه والجسد. وحتّى هذه صارت أحلى، وصارت أكثر فتنة وإغراءً ومعرفة. **(تومئ إلى نرجس كي تنصرف، تقترب بحركة لدنة، وتجلس قرب فاروق)** وفدوى التي ولدت في المرحاض وسط القيء، استردّت تجارة أبيها، وحوّلت زوجها مستخدماً في متجر صغير لها، وهي الآن تبني مملكة من

الثّروة والمشاريع والطموحات.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. ما هذه الدّنيا الّتي أتعرّف عليها؟

فدوى : إنّها الدّنيا الحقيقيّة يا فاروق. الدّنيا المبنيّة من الطين والدم والشهوات والشّراهة. الدّنيا الملموسة والعنيفة والقاسية. باختصار.. الدّنيا الفعليّة الّتي نحيا بها. أمّا تلك الّتي كنت تظنّ أنّها الدّنيا، فليست إلاّ أوهاماً ونفاقاً وتزاويق كاذبة. أصغِ إليّ يا فاروق.. كنت فعلاً أنتظر هذا اللقاء. في فترات قصيرة قد تكون الأوهام جميلة، وأحياناً ضرورية. لكنّ المرء لا يستطيع أن يتغذّى بالأوهام طويلاً، ولا يستطيع أن يبني على الوهم إلاّ الخيبة والمرارة. لا أدري.. أعتقد أنّه وضع شاذ، أن يضيّع رياضيّ متألّق مثلك حياته في مدرسة لا تقيم له وزناً. أريد أن تكون إلى جواري. إنّي أحتاج إلى شخص مثلك، ويغريني كثيراً أن أثبّت قدميك في دنيا حقيقيّة لا وهميّة. ومهما بدت الدّنيا الحقيقيّة قاسية وعنيفة، فإنّ لها أيضاً سحرها الخاص. إنّه سحر أسود مسكر، لا تقاس به مذاقات الأوهام الفقيرة والمغثية. ولكنّك لم تنهِ كأس العصير، ولم تأكل شيئاً.

فاروق : **(ينتفض ويثب واقفاً)** يافاطر السّموات والأرض.. هل تريدين شرائي! إنّك تجعلينني أضحوكة.. إنّك جنّية رهيبة تنصبين الشّباك وتتلاعبين بالعقول. لديّ سؤال واحد فقط.. سؤال يتوقّف عليه مصيري، وأريد جوابه حالاً.

فدوى : ليتك تسلسُ قيادك لي. الطّفل أو الأحمق هو الّذي يعلّق مصيره على جواب واحد.

فاروق : قولي ماتشائين، ولكنّي أريد جواباً واضحاً. هل تأتي زوجتي

إلى هذا البيت؟

(تسود فترة صمت ثمّ بحركة هادئة وطقوسيّة تتناول فدوى علبة السجائر، وتقدّم له سيجارة. يتردّد، يتناول سيجارة، والرّجفة واضحة في يده. تشعلها له ثمّ تعود وتسترخي على الكنبة).

فدوى : أتعلم! إنّ لديك جوهرة نادرة، وأخشى أنّك لا تستحقّها. أشعر بالحزن حين أرى رجلاً ذكيّاً ولا معاً يحيا ويسلك مسلك الحمقى. فتحت لك قلبي وأبواب مملكتي، وهذا لا أفعله لأيٍّ كان، لكن ها أنت تتصرّف كالحمقى. تنسحب إلى محارتك اللّعينة، كي تسبح في مخاطك وأوهامك عاجزاً عن الحياة وعن المبادرة.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. علامَ هذا اللّف والدوران؟ سألتك هل تأتي إلى هذا البيت فأجيبيني.

فدوى : **(بهدوء شديد)** نعم.. إنّها تأتي.. وإنّها أحبّ بناتي إلى قلبي.

فاروق : **(يزداد امتقاعاً وارتعاشاً)** يا فاطر السموات والأرض.

فدوى : وهل تعلم أيها الرّجل التّابه لماذا تأتي زوجتك إلى هذا البيت! المسكينة.. إنّها تأتي لأنّها متيّمة بحبّك. إنّها تأتي، لأنّها على صغر سنّها تريد أن تكون أمّك وحبيبتك وزوجتك. إنّها تأتي لأنّها تعرف أنّ زوجها لا يعيش في زمانه. إنّها تأتي لأنّها تعتبر زوجها آنية خزفيّة ثمينة، ستتحطّم إذا خرجت إلى الدّنيا الحقيقيّة. إنّها تأتي يا أستاذ فاروق لكي تواصلَ الاستمتاع بالسباحة في موادك المخاطيّة، وأوهامك اللزّجة!

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض!

(يبدو وكأنه ينقصف في وسطه، يتهالك على الكنبة، ويخفي وجهه بين يديه).

فدوى : إنّك مخيّب يا أستاذ فاروق. وعلى كلّ أردت الجواب وحصلت عليه، فامضغه على الضرس الّذي يريحك.

(تخرج وتتركه وحيداً في الغرفة، بعد قليل يرفع يديه عن وجهه. يتطلّع حوله، تباغته صورته المتكرّرة والمتعاكسة إلى ما لانهاية. يحملق بذهول فترة من الزّمن، ثمّ ينهض بإعياء، ويجرّ قدميه خارجاً فيما تتلاشى الإضاءة).

المشهد الخامس

(في المطبخ. فاروق يجلس وحيداً على كرسي خشبيّ، ويمسك بيده سكين مطبخ. عيناه زائغتان ووجهه شديد الشحوب).

المؤلّف : وكانت الساعات تدور..

هبط الليل، وبدأ يمتصّ المدينة. وفي صدره كان يتدافع ليل أشدّ ظلمة من ليلة المدينة. حين دخل البيت أدرك أنّها تعلم، فانزوى في المطبخ. احتسى زجاجة من الماء، وظلّ فمه جافّاً. نزع ربطة العنق والقميص، وبدأ يمزّقهما. وحين تعبت يداه، تناول السكّين وقطع البقايا حتّى صارت نسالة، غطّت أرض المطبخ، ثمّ أشعل سيجارة، وجلس. كان متعباً وخاوياً، وكان يفتّش عن الغضب فلا يجد إلاّ مواءً خائراً وشاحباً، والآن ماذا يفعل؟. جرّ إبهام يده على النّصل العريض، وتحسّس الحدّ المرهف حذراً. في ذلك اليوم حين حمل السكّين إلى البيت، تأمّلتها ضاحكة وقالت: «هل اشتريتها من القصّاب؟» فأجاب «نعم من القصّاب اشتريتها. ولا تقولي بعد اليوم، اشتريتَ لي سكيناً لا تقشّر خيارة». وكان يحلو له أن يجلس في المطبخ ويراقبها، وهي تفرم وتقشّر وتقطّع. أصابعها النّاعمة تلتفّ على المقبض الخشبي. كان يحسّ هذا الالتفاف لدناً ومثيراً. لا..

دع الصور. دع الذّكريات. وتأمل عارك بعينين مفتوحتين. الليل يتقدّم، واللّحظات تتوتّر، ثمّ تمضي مثقلة بالخجل. فعلامَ تماطل أو تتمهّل؟ هذا الجرح لا يشفيه إلاّ الدّم. دم. دم.. وجاشت معدته. حين كان طفلاً رأى دماً يسيل على فخذ أمّه، فلجمه الرعب، ودخل في اللغز. فيما بعد فهم وتعلّم، ولكنّه لم يبرأ من الرّعب. ولم يخرج أبداً من قلق اللّغز. مازال الدّم يروّعه، ومازال هذا اللّغز يحيّره. والألغاز تتكاثر. في الجامع ألغاز. وفي المدرسة ألغاز. وفي المديريّة ألغاز. وفي المدينة ألغاز. وهناك. هناك في ذلك البيت تلتقي الألغاز والغوايات معاً. تلك المرايا، تلك الفتنة التي تسيل من الصوت والحركة، من الجسد والأثاث. هي الفوضى تكتسح الدّنيا. فوضى مرعبة، تغرقه وتبلعه في دوامتها المظلمة. والآن.. ماذا يفعل؟ إنّه وحيد وضائع. لم يعد له زمان، ولم يعد له مكان. وقواه خائرة. ليته يغفو قليلاً، أو ليته ينكبّ على مسألة رياضيات. حين تستغرقه مسألة رياضيّات ينسى العالم ونفسه، ويشعر أنّه يسبح في فضاء بلّوري نقي. ولكن الرّياضيات بعض وساوس الشيطان، وأخوه كان يسخر منه دائماً أو يقول: «إن الرياضيات كالشّعر، لاتعلّمك شيئاً عن الحياة» حقّاً. ماذا يعرف هو عن الحياة؟ ماذا يعرف عن العالم الذي يديره الشيخ متولي، والستّ فدوى وعدنان القاضي، وثريّا، ومدير المدرسة، وذلك الشّاب المشورب والمبرقع، وامرأته؟ وامرأته! كن رجلاً.

فاروق : لا.. لا المكان مكاني ولا الزمان زماني. رأسي عجين رخو من الصور والبذاءات والكلمات. لو أغيب. لو أغيب.

(يدار مقبض الباب بارتباك، وتدخل نجاة).

نجاة : **(بصوت متعش)** دعني أفعل لك شيئاً. دعني أساعدك.

(فاروق يعرض عنها ولا يجيب).

نجاة : أعرف أنّي لوّثت كرامتك. أعرف أنّي جرحتك جرحاً عميقاً، وما تفكّر به عادل وسليم. **(تقترب بحياء، وتقف إلى جواره. تمدّ أصابعها إلى السكين)** نعم.. هذا هو الحلّ. إنّك تحمل همّاً تنوء تحته الجبال. تخلّص منّي ومن هذا الهم. إنّ حياتي الوضيعة لا تساوي شيئاً أمام هذا العذاب الّذي تعانيه. ارفع هذه السكّين. ارفعها يا حبيبي. استجمع قواك، واغرسها هنا في نحري. حرّرني من دمي الملوّث. حرّرني من قذاراتي. ادفن شقاءك في لحمي. ابصقه هنا في قلبي. ارفع يدك يا حبيبي. **(تمسك يده، وتحاول أن ترفعها)** ارفعها يا حبيبي.

فاروق : **(ينتر يده منها)** دعيني وحدي.

نجاة : لا أستطيع أن أدعك تتحمّل كلّ هذا الشّقاء.

فاروق : قلت لك دعيني الآن. لا أريد أن أراك. لا أريد أن أسمع صوتك. لا أريد أن أشمّ رائحتك. دعيني وحدي.

نجاة : **(بذل وخضوع)** حاضر يا حبيبي.

(تزحف على الأرض وتنزوي في ركن قصيّ).

المؤلف : هي ابنة خالته. وأحبّها كما لم يحبّ أحداً في الدّنيا. وكانت تقول إنّها تحبّه كما لم تحبّ أحداً في الدّنيا. ولم يكن أبوها راضياً عن هذا الحب. لكنّ إصرارها وضغط العائلة أجبراه على القبول. ويوم زفافهما، انتحى به الأب وقال له.. «إنّي أسلّمك جوهرة، فاعرف كيف تحافظ عليها».. كانت حقّاً جوهرة حتّى تقوّض العالم، وانهار في غرابة هذا النّهار. لو أنّ رأسه يصفو. لو أنّه يستطيع أن يمدّ

يده داخل جمجمته، وينظّفها من الطّين والأقذار والكلمات الرّديئة. ماذا يفعل؟! أيذهب إلى أخيه السّاخر؟! سيصفّق ويقهقه، ويقول.. «هذه هي الدّنيا الحقيقية يا ابن أبي البكر». سيقول.. «حاولت أن أعلّمك السّباحة في بحر الحياة، ولكنّك رفضت وتعاليت». هل يذهب إلى أمّه كما اعتاد أن يفعل منذ مات أبوه؟.. كان في العاشرة حين مات أبوه، كان مسجّىً على السّرير، شمعيّ اللّون وضامراً، وكان يلهث وهو يتكلّم. قال له: (تعلّم، وادخل الجامعة). وقال له: (عليك أن تصير رجلاً قبل أوانك). ولكن أمّه أعفته من هذه المهمّة، ولم يصبح رجلاً قبل الأوان. بعد الدّفن أمسكت البيت بحزم، وأدارت كل شيء. كانت قويّة ومدبّرة، وعرفت كيف تربّي ولديها، وتصل بهما إلى الشهادة والوظيفة. وهي التي اختارت ابنة خالته قبل أن يلحظها، وقبل أن يحبّها. ووَدَّ الآن لو يندسّ في حضنها. لو تفلّي رأسه من الصئبان والهموم، وتهدهده بتمتمات شجيّة لايذكر منها كلمة. تلك أيام لن تعود، والأم ترقد مطمئنة في قبرها. إنّي وحيد مع هذا الهول، وعليك أن تواجهه وحيداً، ولكنّك متعب ولا تستطيع التركيز. النوم أمنية مستحيلة. وأن تنسى أمنية مستحيلة. وأن تدير ظهرك أمنية مستحيلة. لم يعد لك مكان، ولم يعد لك زمان، وليس أمامك إلاّ هذا الفراغ المظلم. لو تستطيع أن أسفك الدّم. دمها.. دمك... كل الدماء.

(تنهض نجاة، وتأتي إليه وهي تشهق بالبكاء).

نجاة : لا.. لا أتحمل ما تفعله بنفسك. لماذا تتردّد! ساعدني قليلاً،

وأنا سأنفّذ الحكم بنفسي **(تخطف السكين من يده. بلهجة انتصار)** ها هي السكين التي اشتريتها من عند اللحام. وبيدي هذه سأغرسها في قلبي الذي تلوّث دمه.

(ينهض فاروق ليمسك بها، فتفلت إلى زاوية المطبخ، وهي ترفع السكين بيدها).

فاروق : هاتي السكّين..

نجاة : لن تأخذها إلاّ بعد أن أصبغها بدمي. أليس هذا ما تريده؟. وما تريده عادل. أنا أقول لك إنّه عادل. لقد أفسدت كلّ شيء. أفسدت كلّ ما هو جميل في حياتنا. وكانت حياتنا جميلة. ألم تكن جميلة يا فاروق؟! ولكني غبيّة.. ولكني حمقاء. تركتها تغويني، وتركت البريق الكاذب يخدعني، وظننت أنّ شيئاً من الترف يزيد بيتنا دفئاً، ويزيد سعادتنا تنوّعاً وعمقاً. قبل أن نفترق.. أريدك أن تعرف يا فاروق أني أحبّك، وأنّ الحبّ هو الّذي دعاني إلى التهوّر، والبحث عمّا يريحك. بدأ الأمر كما تعرفه تماماً. علمت أنّها تريد مطرّزات، وأنّها تدفع أسعاراً مجزية. كنت أراك مرهقاً في ترتيب معاشك كي نمضي الشهر دون عوز وديون. كنت أريد أن أساعدك، ووجدت التطريز فرصة سانحة، فانهمكت في العمل. أحياناً كنت أنهض في الليل، وأنت لا تدري، كي أتمّ قطعة ينبغي أن أسلّمها في الصباح. لماذا أقول لك هذا كلّه!. في البداية كانت تريد مطرّزات، ولكن لم يمرّ وقت طويل حتى اكتشفت أنّ المطرّزات ستار. وأن.. قاومت يا فاروق أكثر مما تظن!.. وكنت أشعر دائماً أنّي أنوس بين الثّلج والنّار. الحياة تزداد عسراً، وسعادتنا العائليّة لايمكن أن تصمد، إذا ضغط عليها

الفقر والحرمان. وكان يغمّني أن تستهلك نفسك في الدروس الخصوصيّة، وأن تنفق وقتك وأعصابك مع أولاد مدلّلين لا يستحقون تعبك. لا.. لا.. إنّي لا أبرّر نفسي.. أردتك أن تعرف فقط أنّي أحبّك، وأردت أن تغفر لي إن استطعت.

(تحاول إغماد السكّين في صدرها. يندفع فاروق هلعاً، ويمسكها من يديها).

نجاة : يا خيبتي! إنّها لم تمسّ ثوبي. إنّي أكره نفسي. إنّي جبانة. أرجوك غالب نفورك من الدّم، وساعدني. أمسك يدي.. أمسك يدي وحرّكها. أغمدها في صدري.

(توجّه قبضتها التي يمسكها فاروق نحو صدرها، لكنّ فاروق يضغط على يدها بشدّة، ويوقفها).

فاروق : اتركي السكين..

نجاة : أرجوك ساعدني **(وهي تشهق بالبكاء)** لا أريد أن أحيا.. لا أريد أن أحيا.

فاروق : **(ينزع السكّين من يدها. محتداً)** هذا لعب. إنّك تعرفين أنّي لا أستطيع. وأنا لا أفهم لماذا تطلبين الموت.. أنت تسبحين في مائك. تكيّفتِ مع التيّار، وتعلّمت كيف تزدهرين فيه. المدينة مدينتك. والبيت المتلألئ بالغواية والمرايا بيتك، إنّ الوقت وقتك يا نجاة، ولا يلائمك أن تطلبي الموت. هناك واحد آخر.. واحد لم يعد له وقت، ولم يعد له مكان، هو الذي يجب أن يغيب.

نجاة : أنا تكيّفت! لو تعرف يا فاروق كم كابدت، وكم عانيت! لو تعرف كم مرّة هجرت، وكم مرّة خاصمت! ولكن من يتورّط لا يبقى له قرار. لا.. ما تكيّفت. وكيف يمكن أن يتكيّف المرء مع حياة ممزّقة ومشروخة! إنّ غربتي أعمق ممّا

تظنّ. واليوم حين أخبروني صعقت، وتثلّجت أطرافي. ولكن بعد قليل هدأت أنفاسي، وشعرت بالارتياح. نعم.. ارتحت، لأنّي اليوم سأنتهي من تمزّقي، وعذاباتي الطويلة. سأودّع القلق، ولسعات النّدم، وأستريح. أنا الّتي أخطأت، وتورّطت، وأنا التي ينبغي أن تموت.

فاروق : (يمسك كتفيها، وينظر في عينيها بتركيز) أحقاً تريدين أن تموتي؟

نجاة : نعم.. وفي هذه اللحظة بالذات.

فاروق : ألا تتظاهرين!

نجاة : وهل بقي مجال للتظاهر يا فاروق!

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. أين كان يختبئ هذا الشّقاء كلّه؟ لم يبق شيء. خراب.. خراب شامل لا يترك لنا خياراً إلّا الرّحيل.. منذ عدت، وأنا أنبش غرائب هذا اليوم، وأشحذ عزيمتي على الرّحيل.

نجاة : لا.. ولماذا ترحل! لا.. ليس أنت.. اقتلني كالكلبة، وتابع حياتك. والحياة أمامك فسيحة.

فاروق : لم يعد لي زمان، ولم يعد لي مكان. ما اكتشفته في المدرسة والجامع والشارع والمديرية وبيت الستّ فدوى، لم يترك لي في هذا العالم جحراً صغيراً أتطوّى فيه. إنّي وحيد وضائع.

نجاة : لا.. لست وحيداً. سأكون ظلّك في كلّ ما تريد.

فاروق : سقط النّقاب عن وجه العالم، فبدا دميماً، مشروم الشفتين، يا الله ما أبشع وجهه!. غريب.. كلّ شيء غريب، ولم يبق لي إلاّ الرحيل.

نجاة : أهذا قرارك يا فاروق؟

فاروق : وهل هناك خيار!

نجاة : إذن سنرحل معاً.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. أينبغي أن تكوني معي في رحلتي الأخيرة؟

نجاة : نعم.. سنكون معاً. وسيكون رحيلنا كالزّفاف. هل تذكر تلك الليلة؟ كان كلانا عديم الخبرة، وشهق كلّ منّا، واعتقدنا أنّنا نموت. نعم.. كتلك الليلة سنشهق معاً، ونموت معاً.

فاروق : ونمضي في البياض. في فضاء من البياض. بعيداً عن رائحة الشيخ متولّي، ومرونة السيد المدير، وهذه المسوخ التي تتسافد في الوحل والقمامة. بعيداً.. بعيداً. ولكنك ملوّثة، وستبقّعين البياض. يا فاطر السّموات والأرض.. كيف كنت تفعلين.! تتعانق وتتمدّد في السرير، وأنت تعلمين أنّ جسدك ملطّخ بأنفاسهم، وبصاقهم، وشهواتهم.. قولي.. أكنت تستمتعين؟

نجاة : أرجوك لا تفسد الحلم. أستمتع! سامحك الله.

فاروق : لم تكوني حجراً.

نجاة : بل كنت حجراً. تريد أن تعرف كيف كنت أتغلّب على القرف والاشمئزاز؟ كنت أبحلق في السّقف، وأفكّر.. سأشتري لفاروق كذا وكذا، وسأشتري للبيت كذا وكذا. لا.. لقد لوّثت جسدي، ولكنّ عواطفي وروحي ظلّت نقيّة، وأقسم لك أنّ هذا الجسد لم يختلج مع إنسان سواك. وفي الليل حين تضمني، كنت أشعر أن قذارتي تتبدّد، وأن خلاياي تتجدّد، وأنّني نجاة التي هي لك، ولك وحدك. سيظلّ البياض ناصعاً، فدعنا نمضِ.

فاروق : أحقاً تريدين الرحيل معي!

نجاة : نعم.. ولن أفارقك أبداً.

فاروق : أتحبينني إلى هذا الحدّ!

نجاة : وربما أكثر..

فاروق : ما أشد وحشة هذا العالم!.

نجاة : ضمّني.. ولنرحل عن وحشة هذا العالم.

(بحركات هادئة يغلق فاروق النّافذة جيّداً، ويقفل باب المطبخ، ثمّ يقطع الأنبوب الّذي يصل جرّة الغاز بالبوتوغاز، ثمّ يمضي إلى الجرّة الاحتياطية، ويفتحها هي الأخرى).

نجاة : والآن.. تعال يا حبيبي. هذه ليلة زفافنا الثّانية.

فاروق : **(وهو يتمدّد إلى جوارها على أرضيّة المطبخ)** نعم.. إنّها ليلة زفافنا الثانية.

(تتناثر العبارات، وهما يخلعان ثيابهما، ويتطارحان الحبّ).

نجاة : هل رفعت الشراع؟

فاروق : نعم.. والرّيح تدفعه بقوّة.

نجاة : والمجذاف.. ألن نحتاج إلى مجذاف؟!

فاروق : والمجذاف جاهز.

نجاة : إني أحبّك.

فاروق : كنت أخاف أن أرحل وحدي.

نجاة : وكيف ترحل وحدك!

فاروق : إننا نبتعد عن الخراب والوحشة والفوضى.

نجاة : نعم.. إنّنا نبتعد، وندخل في البياض.

فاروق : رأيت اليوم رجلاً كان يغطي الزبد فمه. كان يريد أن يصرخ، وكان يصرخ.. أتعلمين ماذا كان يقول..؟

نجاة : ماذا كان يقول يا حبيبي؟

فاروق : كان يقول: الموت ولا التّعريص مع دولة هذه الأيام.

نجاة : نعم.. الموت ولا التّعريص مع دولة هذه الأيام.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. ما أشد وحشة هذا العالم!

نجاة : حقاً.. ما أشدّ وحشة هذا العالم!

(تلاشى الإضاءة ببطء شديد).

المؤلف : كان يوماً غائماً وبارداً. كان يوماً ككّل أيام أوائل الشّتاء. وكانت الساعات تدور..

ستار.

١٩٩٣

سعد الله ونوس

ولد عام 1941 في قرية (حصـين البحر) محافظة طرطوس، سـوريا درس حتى الثانوية في قريته كان أول كتاب أقتناه هو "دمعة وابتسامة" لجبران وكان عمره 12 سنة، ثم نمت مجموعة كتبه وتنوعت : طه حسين ، العقاد، ميخائيل نعيمة، نجيب محفوظ، يوسف السباعي، إحسان عبد القدوس ... الخ

1959حصل على الثانوية العامة، وسافر إلى القاهرة في منحة دراسية، ليدرس الصحافة في كلية الآداب، جامعة القاهرة.

1961انفصال الوحدة بين سوريا ومصر (هزة شخصية كبيرة) فكتب مسرحية طويلة عنوانها "الحياة أبداً."

1962كتب مقالاًفي مجلة (الآداب) حول الوحدة والانفصال، ومقالات في جريدة (النصر) الدمشقية.

1963الحصول على الليسانس، دراسة نقدية طويلة عن رواية (السأم).

ألقى في المعهد العالي للفنون المسرحية بدمشق سلسلة محاضرات تحت عنوان (في البحث عن مسرح عربي).

بدأ الكتابة في مجلة الآداب التي نشـر فيها مقالا عن الانفصـال ودراسـة عن رواية السـأم لالبرتو مورافيا، ثم رجع إلى دمشق وعمل في وزارة الثقافة عمل محرراً للصفحات الثقافية في صحيفتي السفير اللبنانية والثورة السورية. كما عمل مديراً للهيئة العامة للمسرح والموسيقى في سوريا. في أواخر السـتينات، سـافر إلى باريس ليدرس فن المسـرح. وبعد أن عاد تسـلم تنظيم مهرجان المسـرح الأول في دمشـق ثم عين مديراً للمسـرح التجريبي في مسـرح خليل القباني مسـرحياته كانت تتناول دوما نقدا سياسيا اجتماعيا للواقع العربي بعد صدمة المثقفين إثر هزيمة1967، في أواخر السـبعينات، سـاهم ونوس في إنشـاء المعهد العالي للفنون المسـرحية ب دمشـق، وعمل مدرساً فيه. كما أصدر مجلة حياة المسرح، وعمل رئيساً لتحريرها.

في أعقاب الغزو الإسـرائيلي للبنان وحصـار بيروت عام 1982، غاب ونوس عن الواجهة، وتوقف عن الكتابة لعقد من الزمن. عاد إلى الكتابة في أوائل التسـعينات. كان سـعد الله ونوس أول مسـرحي عربي يقوم بكتابة الرسـالة الدولية في اليوم العالمي للمسـرح 27 آذار 1996 تم تكريم سعد الله ونوس في أكثر من مهرجان أهمها مهرجان القاهرة للمسرح التجريبي ومهرجان قرطاج وتسلم جائزة سلطان العويس الثقافية عن المسرح في الدورة الأولى للجائزة في 15 أيار (مايو) 1997، توفي ونوس بعد صراع طويل استمر خمس سنوات مع مرض السرطان.

وهكذا كان سـعد الله ونوس مقاتلاً بالكلمة وحالماً بالحرية حتى آخر لحظة في حياته, فقد ذكرت زوجته فايزة شاويش انه لم يترك الكتاب والورق والاقلام حتى في ايامه الأخيرة بالمستشفى وهو

يودع دنيانا. ومن الأقوال الشـــهيرة لـه والتي القاها في مؤتمر المســـرح بباريس قبيل وفاته (نحن محكومون بالأمل ولا يمكن ان يكون هذا نـهاية التاريخ).

منح ســـعد الله ونوس الجائزة على مجموع أعماله المســـرحية، مع التنويه بمســـرحياته الأربع التالية: حفلة ســـمر من أجل 5 حزيران، ســـهرة مع أبي خليل القباني، مغامرة رأس المملوك جابر، الملك هو الملك.

وذلك لما تحققه هذه الأعمال من تأصــيل لصــيغة مســرح عربي يفيد أولاً من تراث الأمة العربية تاريخاً، أو أسـطورة، أو حكاية، ويفيد ثانياً من التراث المسـرحي الإنسـاني، قديمه وحديثه موظفاً بشــكل خاص أســاليب المســرح الملحمي، والمســرح داخل المســرح، في قالب يتحد فيه الإيقاع الدرامي ضـــمن هدف خلق مســـرح عربي جديد. ويتعامل مع الواقع العربي برؤية واضـــحة من الناحيتين النظرية والعملية، واعية لدور المســـرح في تعميق الإحســـاس الجماعي بالمصـــير التاريخي.

كاتب مســـرحي ســـوري ولد في حصـــين البحر بمحافظة طرطوس عام 1941 ، واشـــتهر منذ الستينات كواحد من أبرز وجوه الحركة الثقافية والمسرحية في العالم العربي.

درس الصحافة في القاهرة وأنهى دراسته في عام 1963 . وفي تلك الفترة بدأ اهتمامه بالمسرح وكتب مسرحيات قصيرة صدرت عن وزارة الثقافة في سوريا عام 1965 ، في كتاب مستقل تحت عنوان " حكايا جوقة التماثيل " ثم جمعت مع غيرها في كتابين صـــدرا عن الآداب في لبنان عام 1978 . ومن أهم هذه المســـرحيات القصـــيرة " ميدوزا تحدق في الحياة " و " فصـــد الدم " (1963) ، و " جثة على الرصـيف " ومأســاة بائع الدبس الفقير " والرسـول المجهول في مأتم انتيجونا " (1964) و " الجراد.(1965) "

سافر إلى فرنسا عام 1966 وتعرف على المسرح الغربي في فترة تحولاته الأساسية ، واستطاع أن يستوعب أهم الطروحات الجديدة في تلك المرحلة وأن يطوعها في أعماله على أرضية المسرح العربي واهتماماته . فاستخدم " الهابننغ والتحريض " وأدخل تقنياتهما على موضوع الحرب في عام 1968 وذلك لكي يطرح سؤالا جوهريا حول الهزيمة مشككا بقدرة الكتابة المسرحية التقليدية على التعبير عن المستجدات والأحداث العنيفة المعاصرة كما في مسرحية " حفلة سمر من أجل 5 حزيران. "

إن استخدام تقنيات المسرح الغربي ، في تلك المرحلة ، لم يؤد عند سعد الله ونوس ، بأي حال من الأحوال إلى عملية نسخ ، وإنما كان عملية جدلية ربطت ودمجت بين أهم التطورات التي دخلت على المســـرح العالمي في الغرب ، وبين أشـــكال وتقاليد " الفرجة " في تراثنا الثقافي والشـــعبي . وهذا ما نجده في مســـرحيات مثل " الملك هو الملك " (1978) و " الفيل يا ملك الزمان " ، و " مغامرة رأس المملوك جابر " (1969) حيث يحكي حكواتي لجمهور مقهى شعبي حكاية المملوك الذي ضيع رأسه في معمعة الصراع على السلطة . في هذه المسرحيات يســتخدم ونوس تقنيات اللعبة والحكاية التي تولد حكاية أخرى (كما في حكايات ألف ليلة وليلة) ، وتقنية المســرح داخل المســـرح بحيث تبدو الأمور وكأنه لعب ينقلب إلى جد . وقد بلور ونوس عبر هذه المسرحيات مفهوم " التسييس " وميزه عن المسرح السياسي.

وبالإضـافة إلى ذلك صـاغ ونوس أفكاره عن المسـرح والثقافة بشـكل نظري في كتابي " بيانات لمســـرح عربي جديد " و " هوامش ثقافية " . والواقع أن اهتمامات ونوس المتعددة والمتنوعة على المســـتوى الثقافي قد تبلورت في نواح عديدة منذ البداية . فقد قام بترجمة جان فيلار إلى العربية ، وكتب مسرحية عن مؤسس المسرح في سوريا وهي " سهرة مع أبي خليل القباني " . كما ساهم في ترسيخ أسس لمهرجان مسرحي في دمشق ، وأسس وترأس تحرير مجلة مسرحية مختصة هي (الحياة المسرحية) ، وساهم في إنشاء معهد لتدريس المسرح في سوريا.

كرم سعد الله ونوس في محافل عديدة أهمها مهرجان القاهرة للمسرح التجريبي في دورته الأولى ومهرجان قرطاج بــــ تونس عام 1989 وحصل على جائزة سلطان العويس الثقافية عن حقل المسرح في دورتها الأولى.

صـــــدرت أعماله الكاملة في عام 1996 ، في ثلاثة مجلدات عن دار الأهالي بدمشـــق ، جمعت فيها كل المســـرحيات الطوية والقصـــيرة والنصـــوص النظرية من بيانات وكتابات تتعلق بالمسرح . وقد ترجمت مسرحياته إلى العديد من اللغات الأجنبية كما نشرت وتم عرضها في كثير من الدول العربية والأوربية.

رحل سعد الله ونوس في الخامسة عشر من أيار / مايو 1997 ، أثر مرض دام لسنوات لم ينقطع خلالها عن الكتابة . ومن أعماله في هذه الفترة " طقوس الإشـــارات والتحولات " و " والأيام المخمورة. "

هوامش للعرض والإخراج

أحاول في هذه المسرحية تجربة أخرى من تجارب " مسرح التسييس " التي بدأتها من قبل - ينبغي هنا التنبيه إلى أن هناك فارقا كبيرا بين " المسرح السياسي " و " مسرح التسييس " لا مجال الآن للبحث فيه - وأحدد بسرعة مفهوم هذا " المسرح " على أنه حوار بين مساحتين . الأولى هي العرض المسرحي الذي تقدمه جماعة تريد أن تتواصل مع الجمهور وتحاوره . والثانية هي جمهور الصالة الذي تنعكس فيه كل ظواهر الواقع ومشكلاته .. وحتى الآن لا يزال هذا الحوار صعبا . فمن جهة ، هناك التقاليد المسرحية المبنية على إلغاء مثل هذا الحوار ، أو إقامته بصورة غير مباشرة وضمنية . وهناك أيضا - وهذا أهم - طبيعة المتفرجين أنفسهم وموانعهم الداخلية التي تحول بينهم وبين مباشرة الحوار والانسياق مع نوازعهم الداخلية للتعبير عن أنفسهم . لهذا فإننا نقوم بتجربة بعض الوسائل المصطنعة لتقديم مثل على إمكانية هذا الحوار كأن نضع في سياق العمل متفرجين يتحدثون لحسابهم ، ويناقشون ، ويقدمون نموذجا لما يستطيعه ، المتفرج أو لما ينبغي أن يكون عليه . طبعا نحن لسنا من السذاجة بحيث نعتقد - كما ظن أحد الكتاب في تعليقه على " حفلة سمر " - أن المتفرجين الحقيقين لن يكتشفوا أن هؤلاء الذين يجلسون بينهم ، ويشتركون في النقاش والحوار ، همم ممثلون مدربون على أدوارهم .. ولكن كما قلت سابقا : إننا نحاول ببعض الوسائل الاصطناعية كسر طوق الصمت ، وتقديم نموذج قد يؤدي تكراره إلى تحقيق غايتنا في إقامة حوار مرتجل وحار وحقيقي بين مساحتي المسرح : العرض والمتفرج . ومن المؤكد أن هذه الوسائل ليست كافية وحدها ، وقد تتحول إلى مجرد مسألة شكلية وتقنية ، ما لم يتوفر الأمر الأهم والأساسي في إثارة الحوار وتشجيعه . وأعني أن تتوفر في العرض المسرحي - أي في المساحة الأولى - الشروط اللازمة لإثارة الحوار .. كارتباط الموضوع بحياة المتفرج ومشاكله ، ونوع المعالجة ، وشكلها .. و... على أن هذه الشروط لا تكفي الموهبة فقط لتحقيقها ، وإنما تحتاج إلى بحث طويل في ظروف البيئة وبنيتها . وللأسف حتى الآن لم نشرع جديا في هذا البحث.

إني أحلم بمسرح تمتلئ فيه المساحتان ، عرض تشترك فيه الصالة عبر حوار مرتجل وغني يؤدي في النهاية إلى هذا الإحساس العميق بجماعيتنا وبطبيعة قدرنا ووحدته.

هذه المسرحية ليست إلا مشروع عمل لن يتم إلا بعد أن تتوفر له مجموعة متجانسة ولها رؤيتها ، تقوم ببنائه وبلورة إمكانياته من خلال بحث دؤوب ، لا تتوقف حددوده عند الهواجس

الجمالية ، بل تتعداها إلى المشـكلات السـياسـية والاجتماعية للواقع . إن كل تجربة عرض لهذه المسرحية ينبغي أن تكون في الوقت نفسه تجربة بحث ظروف البيئة الراهنة ، وشروط الاتصال بالمتفرج والتفاعل معه . دون ذلك ، هذه المسرحية تفقد كل مرراتها وقيمتها أيضا.

عندما أقول إن المسـرحية ليسـت إلا مشـروعا للعمل ، فإنني أعني وجود بعض الثغرات والمسـاحات الفارغة ، التي تركت عمدا كي يملأها " العرض المسـرحي " بما يلائم الظروف والمكان . ليست لهذه المسرحية بداية دقيقة ، والسياق نفسه يمكن ألا يتخذ شكلا صارما ومعماريا . نحن في مقهى .. والمقهى ليس مكانا للحدث المسرحي ، بل هو المسرح نفسه خشبة وصالة . والجو الذي يسوده له دور صميمي في المسرحيه . فمن خلاله سنعمد إلى كسر الطوق اليابس للعرض المسرحي ، وسنتخلص من طقوس العمل الدائري التام لنبعث بعد ذلك نوعا من الألفة بين المتفرجين ، يتيح لنا تقديم صـورة عفوية تتخللها حكاية ذات مغزى . لهذا فإن البداية ليسـت مرهونة بسـاعة معينة أو بافتتاح صـارم . إننا نبدأ فقط عندما يعم إحسـاس منشـود بالألفة . وتتلاشـى الغرابة الأولى ، التي يحسـها المرء حين يجد نفسـه وسـط جماعة ، هي الأخرى بمجموعها تحس بالغرابة إزاء قصة وشخصيات ومناظر تراها لأول مرة.

باختصـار إني أقترح شـكل " سـهرة المنوعات " لعرض مسـرحي . ولا شـك جو المقهى يتيح لنا فرصة ممتازة لذلك . وهذا الشكل لا يلتصق بهذه المسرحية فقط وإنما يمكن التوسع فيه ، واستنفاد إمكانياته في أعمال كثيرة لأن المهم في النهاية هو أن نتجاوز شكلا صارما لمسرح ، حتى الآن لا يزال المتفرج عندنا يجد نفسـه غريبا إزاءه . وهو يبذل مجهودا خاصـا - مجهودا ثقافيا بالطبع - كي يتلاءم مع هذا الشكل أو يألفه.

وباعتبار ما سـبق ، فإن كل أحاديث الزبائن ، وتدخلهم في مجريات الأحداث ، وتعليقاتهم ليسـت إلا اقتراحات ، أو ما سـميته وسـيلة اصـطناعية لتشـجيع المتفرج على الكلام والارتجال والحوار .. ولهذا فمن الممكن في ضـوء أي إخراج أن يعاد النظر في هذه الأحاديث ، أو أن تبدل صيغتها وتحول إلى العامية...

يمكن تقديم هذه المسـرحية في أي مكان ، وفي أي مسـاحة أنا أضـعها الآن في مقهى ، ولكن ذلك لا يمنع من تقديمها في أي مكان...

وبكلمة واحدة .. إني أبحث عن عرض حي لحكاية تهمنا جميعا . ولذا أتصور استخدام كل الوســـائل الممكنة كي نصـــل إلى هذا العرض الحي الذي أتمناه " فرجة " ممتعة ومفيدة تدفع المتفرج إلى تأمل مصيره.

في ركن ناءٍ من قرية حصــين البحر بريف طرطوس الســوري، وُلد ســعدالله ونوس عام 1941 وســط عائلة فقيرة تعاني من وطأة الحرمان. كان الطفل ضــعيفا في مادة التعبير، لكنه لم يكن يعلم أن تلك النقطة السلبية في تقريره المدرسي ستكون بوابة نحو عالم الكلمة والمسرح.

يروى أن أسـتاذه، بنظرة حانية، نصـحه بالإكثار من القراءة، وهكذا بدأت رحلته. أول كتاب اقتناه كان "دمعة وابتسـامة" لجبران خليل جبران، ثم توسـعت مكتبته تدريجيًا لتشـمل أعمال طه حسـين وميخـائيل نعيمـة ونجيب محفوظ، لتصـــبح فيما بعد ملاذًا لـه من واقعه القـاســـي. هذه البدايـة المتواضـعة لم تكن مجرد لحظة عابرة في حياته، بل كانت شـرارة لإشـعال موهبة كتب لـها أن تـهزّ خشبة المسرح العربي وتترك بصمة لا تُمحى.

الرحلة نحو الكلمة

<u>تأملات نقدية في التاريخ العربي</u>

بعد حصـــوله على الثانوية العامة عام 1959، غادر ونوس قريته إلى القاهرة بمنحة دراسية لدراسة الصحافة في كلية الآداب بجامعة القاهرة. في شوارع المدينة الضخمة، وجد نفسه منجذبًا إلى محاضــرات الدكتور محمد مندور، حيث اكتشـــف عالم النقد الأدبي الذي فتح له أبواب المسرح.

هناك، في أروقة الجامعة، بدأ يكتب أولى محاولاته المســـرحية بعنوان "الحياة أبدا" عام 1961، رغم أنها لم تُنشـــر آنذاك. كانت تلك الخطوة الأولى في رحلة طويلة كان يجهل وجهتها، لكنها كانت مليئة بالحماس والتطلع.

عاد إلى دمشق عام 1963، حيث عُيّن مشرفًا على قسم النقد في مجلة "المعرفة" التابعة لوزارة الثقافة. في تلك الفترة بدأ يكتب مقالات نقدية ومسـرحيات قصـيرة نُشـرت في مجلات مثل "الآداب" و"الموقف العربي."

عام 1965 أصدر أولى مجموعاته المسرحية بعنوان "حكايا جوقة التماثيل"، التي ضمت ست مسرحيات، منها "لعبة الدبابيس" و"جثة على الرصيف" و"الرسول المجهول في مأتم أنتيغونا". كانت هذه الأعمال تعكس رؤيته الأولية للمسرح كأداة تعبير عن الواقع الاجتماعي، لكنها كانت مجرد مقدمة لما سيأتي لاحقًا.

ميلاد "مسرح التسييس"

عام 1966 حصل ونوس على إجازة دراسية وسافر إلى باريس لدراسة المسرح الأوروبي. في شوارع العاصمة الفرنسية كتب رسائل نقدية عن الحياة الثقافية هناك، ونشرها في مجلات عربية، لكن الحدث الأكبر كان نكسة حزيران 1967. تلك الهزيمة المؤلمة هزت وجدانه، فكتب مسرحيته الشهيرة "حفلة سمر من أجل خمسة حزيران"، التي اعتُبرت صرخة ضد الخذلان والاستسلام. هنا، تبنى ونوس مفهوم "مسرح التسييس"، وهو أسلوب يتجاوز مجرد عرض الواقع ليصبح أداة لتغييره. كان يؤمن بأن الأنظمة القمعية تستفيد من مجتمع لا يفكر سياسيًا، وأن تسييس المجتمع هو خطوة تقدمية جوهرية.

أولى محاولاته المسرحية

بمرور الوقت تحول مسرح ونوس إلى مرآة تعكس تناقضات المجتمع العربي، لكنه لم يقتصر على عكس عيوب المجتمع، بل سعى لكسر تلك الصورة وإعادة تشكيلها.

في "سهرة مع أبي الخليل القباني" (1973) استعاد دور الفن في مواجهة السلطة، بينما في "طقوس الإشارات والتحولات" (1994) غاص بعمق في قضايا الدين والجنس والسيطرة. "منمنمات تاريخية" (1994) قدمت تأملات نقدية في التاريخ العربي، و"الأيام المخمورة" (1997)، آخر أعماله، كانت وصية كتبها وهو يصارع المرض، محملة بالأمل رغم الألم.

لم يكن ونوس منخرطًا في أحزاب سياسية، لكنه كان مثقفًا ملتزمًا، يرى أن دوره يتجاوز الكتابة إلى مساءلة الواقع. قال ذات مرة "إننا محكومون بالأمل،" عبارة أصبحت شعارًا في خطابه ليوم المسرح العالمي 1996، حيث كان أول كاتب عربي يُكلف بهذا الشرف بعد توفيق الحكيم. كانت كلماته دعوة إلى استمرار النضال الفكري، حتى في أحلك الظروف.

في سنواته الأخيرة أصيب ونوس بالسرطان، لكنه رفض أن يتوقف قلمه. كتب خلال تلك الفترة أعماله الأعمق، كأنما كان يريد ترك كل ما لديه قبل الرحيل. في 15 مايو 1997، توفي

عن عمر 56 عامًا، تاركًا إرثًا مسرحيًا وفكريًا عظيمًا. لم يكن مجرد كاتب، بل كان ضميرًا ثقافيًا قاوم الطغيان بالكلمة، وجعل من الخشبة منبرًا للحرية.

رمز تحت التهديد

بعد 28 عامًا من رحيله، عاد اسم ونوس إلى الواجهة في سياق غير متوقع. في ظل حكومة انتقالية جديدة تسعى لإعادة تشكيل الهوية الثقافية السورية، تسربت وثيقة في 2025 تشير إلى اقتراح يقضي بإعادة تسمية أكثر من 60 مدرسة في دمشق، منها مدرسة تحمل اسم ونوس.

إرث سعدالله ونوس لا يقاس بعدد مسرحياته

زوجته، فايزة شاويش، عبّرت عن أسفها العميق، قائلة إن زوجها "رمز وطني لا ينتمي إلى نظام، بل يستحق التكريم." اندلعت ضجة واسعة، لم تكن مجرد رد فعل على اسم مدرسة، بل تعبيرًا عن خوف من محو الرموز الثقافية التي شكلت وجدان السوريين.

تدخل وزير الثقافة، محمد ياسين صالح، ليؤكد بقاء الاسم، لكن القرار الأولي أثار

تساؤلات. لاحقًا، أُعلن تراجع السلطات عن قرار رفع الاسم بعد ردود فعل غاضبة من المثقفين. لو لم يتراجعوا، كان ذلك سيُفسر كإشارة إلى استمرار منطق الإقصاء، وكان سيضعف مصداقية النظام الجديد في ادعائه الانفتاح. التراجع، رغم تأخره، أعطى فرصة لإعادة الاعتبار لرمزية ونوس، لكنه أيضًا أبرز حساسية المجتمع تجاه محاولات التلاعب بالذاكرة الثقافية.

إرث لا يُمحى

إرث سعدالله ونوس لا يقاس بعدد مسرحياته، بل بقدرته على إلهام أجيال. كان يرى المسرح فضاء لتحرير الإنسان من الخوف والتبعية، وسلاحًا ضد الصمت. أعماله، من "حفلة سمر" إلى "الأيام المخمورة"، لم تكن مجرد نصوص، بل دعوات للتفكير والتغيير. في زمن الانكسارات كتب ليقاوم، وترك أملًا يستمر في التوهج.

اليوم، ونوس يبقى رمزًا للمثقف المقاوم، والمسرح منبرًا للحرية. اسمه على مدرسة ليس مجرد تكريم، بل تذكير بأن الكلمة يمكن أن تكون مقاومة، وأن الثقافة هي الوطن الحقيقي الذي لا يمكن أن يُغلق. في عالم يتغير باستمرار، يبقى صوته نقيًا، يدعو إلى الأمل، ويحث على

التساؤل: هل يمكن للفن أن يغير الواقع؟ سعدالله ونوس أجاب: نعم، وأثبت ذلك بكل خطوة خطاها على خشبة المسرح.

أهم المؤلفات :

- **فصد الدم 1964.**
- **صدور أول مجموعة له من المسرحيات القصيرة عن وزارة الثقافة تحت عنوان (حكايا جوقة التماثيل) 1965.**
- **عندما يلعب الرجال 1968.**
- **حفلة سمر من أجل خمسة حزيران 1968**
- **الفيل يا ملك الزمان1969.**
- **مغامرة رأس المملوك جابر 1971**
- **ترجمة كتاب (حول التقاليد المسرحية) 1976.**
- **الملك هو الملك 1977**
- **رحلة حنظلة 1978**

- **الاغتصاب 1990**
- **منمنمات تاريخية 1994**
- **طقوس الإشارات والتحولات 1994**
- **أحلام شقية 1995**
- **يوم من زماننا 1995**
- **ملحمة السراب 1996**
- **بلاد أضيق من الحب 1996**
- **رحلة في مجاهل موت عابر 1996**
- **الأيام المخمورة 1997**